

هدايات

التي هي أقوم القرآنية

الجزء الأول



تأليف
مجموعة من الباحثين
إشراف
أ.د. فؤاد البنا



هدايات التي هي أقوم القرآنية

تأليف: مجموعة من الباحثين

إصدار: جمعية معاذ العلمية

جمعية مجازا العلمية
للإسلاميات والعلوم الشرعية



مشروع توزيع

المصحف الشريف

نطمح لتوزيع 50,000 نسخة

هدف
من نقص بالمصاحف خاصة في المناطق الريفية .
فتح باباً من أبواب الخير لتحقيق الصدقة الجارية .



سعودي

تكلفة
المصحف الواحد 15

المركز الرئيسي: +967711120996
شارع جمال تعز - اليمن +9674250845

حساباتنا | مصرف اليمن البحرين الشامل 5699480
البنكية | بنك سبأ الإسلامي 45021

muath.t.y
www.muath.org

هدايات

التي هي أقوم القرآنية

الجزء الأول

تأليف
مجموعة من الباحثين

إشراف
أ.د. فؤاد البنا



جميعهم معاذ العليين
لله الحمد والبركة

١٤٤٦ هـ - ٢٠٢٥ م

يوزع مجاناً ➤

« مقرة »

الحمد لله القائل عز وجل: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، والصلاة والسلام على من قال: «خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ» البخاري، وبعد:

فقد درجت الجمعية في الأعوام الأخيرة، على استكتاب مجموعة من أهل العلم حول موضوع معين، وإصدار المحتوى في كتاب قبل شهر رمضان، وكانت البداية تكليف الأستاذ الدكتور فؤاد البنا بالإشراف على إعداد الكتاب، واختيار عنوانه الذي يحمل اسم (هدايات التي هي أقوم القرآنية) استنادًا إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾، وتحت هذا العنوان الذي تتجسد فيه شمولية القرآن الكريم الذي أخبر المولى عز وجل بأن فيه: ﴿تَبَيَّنَّا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩]، اختيرت أبرز ميادين الهدايات مع ترشيح واحد من أهل العلم للكتابة فيه، على النحو الآتي:

أ.د/ فؤاد البنا.	أقوم الهدايات العقدية
أ.د/ رضوان الشيباني.	أقوم الهدايات العملية
أ. وليد سعيد ناجي.	أقوم الهدايات التربوية
د. حامد القباطي.	أقوم الهدايات التعليمية
د. جميل صالح.	أقوم الهدايات الاجتماعية
أ. حمود العواضي.	أقوم الهدايات السياسية

وقد خرج الكتاب بالصورة التي ترونها أمامكم الآن، وأرجو أن ينال رضاكم إن لم ينل إعجابكم، وأن يمثل محتواه إضافة أصيلة إلى رصيدكم المعرفي والفكري، وحتى المنهجي في قضية التفاعل الخلاق مع القرآن الكريم، هذا الكتاب الذي تكمن فيه نجاة الأمة من تحديات التقاليد الراكدة وموجات الغزو الثقافي الوافدة، ويمثل بوصلة الهداية إلى ناصية الشهود الحضاري على الأمم، حيث يمتلك الأنوار التي تزيح ظلمات التخلف، والهدايات التي تقضي على حوالك الضلال، والبيّنات التي تجتث جذور الشكوك، والمعادلات التي تصنع التقدم الحضاري وتعين على استعادة مقام ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ [آل عمران: ١١٠]، بما يتضمنه هذا المقام من تكليف وتشريف.

فإن أحسنا في عملنا فالحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وإن أخطأنا فإنما نحن بشرٌ نصيب ونخطئ، وحسبنا أننا قد بذلنا وسعنا للوصول إلى الصواب، ونسأل الله أن يتجاوز عن ما أخطأنا ويمنحنا من خزائن كرمه، وأن ينظر إلى ما فعلنا من زاوية فضله لا من زاوية عدله، والحمد لله رب العالمين.





الفهرس

الهدايات العقدية أ.د/ فؤاد البنا	
١٢	الواحدة الشاملة.
١٩	الوسطية والاتزان.
٢٦	العالمية والثبات.
٣١	السننية والسببية.
٣٤	العملية والواقعية.
الهدايات العلمية أ.د/ رضوان الشيباني	
٤٠	التأكيد على توقيفية العبادات.
٤٤	دور العبادات في تحقيق الهداية العملية.
٤٩	التلازم بين الاعتقاد القلبي والتكاليف العملية.
٥٢	دور العبادات في تحقيق مقاصد الهداية العملية.
٥٥	دور العبادات العملية في تعزيز الوحدة بين المسلمين.
٦٠	تقرير مبدأ التعايش مع الآخر.
٦٥	دور السببية في تحقيق الهداية العملية.

الهدايات التربوية أ. وليد سعيد ناجي	
٧٢	التأكيد على سنة الاختلاف والتربية على لم الشمل.
٧٧	حسن الظن بالله في نصره لهذا الدين.
٧٩	التربية على الصبر وبيان فضله.
٨٢	نداءً محبب لتقويم سلوك غير مرغوب.
٨٥	المداومة على العمل الصالح وثمرته.
٨٨	التفكر وفضله.
٩٢	قيام الليل وتقويمه للنفس.
الهدايات التعليمية د. حامد القباطي	
٩٨	قابلية التعلم مؤهل الاستخلاف وكرامة الله للإنسان.
١٠٦	درس عملي عن خطورة الخطأ وكيفية التعلم منه.
١١٠	التعليم بالتجربة والتطبيق.
١١٥	طلب الاستزادة من العلم واليقين.
١١٨	تيسير الله على عباده وطلب الاتجاه إلى طاعته.
١٢١	التعليم بالحوار والحجج العقلية.
١٢٥	العلم والتعليم المحور الأول للرسالة القرآنية.

الهدايات الاجتماعية د. جميل صالح	
١٣١	التذكير بالأصل الإنساني.
١٣٣	التقوى شرط استمرارية العلاقات الاجتماعية.
١٣٥	العدالة شرط لقيام العلاقات الاجتماعية وتكاملها.
١٣٩	إرساء مبدأ التكافل الاجتماعي بين أبناء المجتمع.
١٤٢	التأكيد على أهمية الوفاء بالعهود والمواثيق.
١٤٥	التأكيد على خُلق الإحسان.
١٤٨	إرساء مبدأ العفو والصفح.
١٥١	النهي عن كل ما يفتت النسيج الاجتماعي.
الهدايات السياسية أ. حمود العواضي	
١٦٣	هدايات الحرية والاستقامة والاعتصام.
١٧١	هدايات العدل.
١٨٠	هدايات الانضباط والتدرج.





أقوم الهدايات العقدية

الواحدة الشاملة

الوسطية والاعتزان

العالمية والثبات

السننية والسببية

العملية والواقعية

الواحدة الشاملة

جاء الإسلام والبشرية تعاني من التفكك الذي يبدأ من التصورات العقدية وينتهي عند التصرفات السلوكية، فابتدأ بتوحيد التصورات التي تنبثق منها التصرفات، وذلك على النحو الآتي:

١- إيجاد قاعدة الواحدة الشاملة:

الواحدة خصيصة قرآنية متعددة للمجالات، إذ تنطلق من الخالق إلى المخلوق، وفي إطار المخلوق تتمازج القبضة الترايبية مع النفخة الروحية، وينسجم الفرد مع المجتمع، وفي إطار المجتمع يأتلف الذكر مع الأنثى، وتتكامل الحقوق مع الواجبات، ويتكامل الدنيوي مع الأخروي، وتتآزر القاعدة مع القمة، وفي الإطار الزمني يتحد الوقت من الماضي إلى الحاضر، ومن أجل اتساق هذه الثنائيات وتوازنها فقد وضع القرآن لها قاعدة متينة في أول نص تنزل منه، فقد نزلت سورة العلق كأول سورة في القرآن الكريم على النبي ﷺ، عبر جبريل عليه السلام الذي كان يحمل مقطعاً من خمس آيات، وابتدأها بفعل الأمر ﴿أَقْرَأْ﴾، فما هي القراءة التي يأمر بها الله تعالى عباده قبل أن يُعرفهم بنفسه ويدعوهم إلى الإيمان به وحده من دون كافة الآلهة؟!

إنها القراءة التي تنتصب كقاعدة لوحداية الله وما سترتب على الإيمان بهذه الوحداية من واحدات تجعل الحياة متسقة والعبادة متكاملة والبشرية متألّفة، بعيداً عن مشاعر التباغض والتحاسد، وبمعزل عن قيم الشقاق والتحارب التي تستهلك طاقات الناس في جلب الشقاء لهم!

وهي القراءة الشاملة التي تشكل أساس التكامل المعرفي وتخلق علاقة

الأمة التي ستنبؤ مقام الشهود الحضاري على الناس، قال تعالى: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝﴾ [العلق: ١-٥]، ولو تمعنا هذه الآيات القليلة في مبناها لوجدنا أنها عظيمة في معناها، فإنها تؤسس لتكامل المعرفة بين آيات الكتاب المسطور؛ ذلك أن كلمة اقرأ جاءت بين يدي خمس من آيات القرآن الكريم، ومفتاح القراءة المستبصرة لآيات القرآن هي التدبر، وفي قوله: ﴿بِأَسْمِ رَبِّكَ﴾ تأكيداً على أن القراءة بكل أنواعها ينبغي أن تكون مشدودة باسم الرب، بحيث تنطلق من قواعد توجيهاته وتبني الوصول إلى مرساة مرضاته، وهذا يتطلب حضور العلم والإخلاص، وفي قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ﴾ إشارة إلى عموم ما خلق الله من كائنات في هذا الوجود الذي لا يعلم مداه إلا من خلقه، ومفتاح القراءة الكونية في الكتاب المنظور هو التفكير. وفي قوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ إشارة إلى آيات الأنفس بعد آيات الآفاق، ومفتاح قراءتها هو التبصر، كما ورد في قوله تعالى: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾، وفي هاتين الآيتين يكون المولى - عز وجل - قد أورد الثلاثة الحقول المعرفية الأساسية التي يؤدي تكاملها إلى صناعة نواة لحضارة تستظل تحت راية وحدانية الله الذي سيمناها من قوته ما تضعف أمامها القوى، ومن عزته ما يجعل الأعداء أمامها أذلة صاغرين، ولذلك جاء التأكيد على وحدة القراءة الكلية مقرونة بوصف الرب الأكرم: ﴿أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾، فمن قرءوا آيات القرآن الكريم عبر التدبر القلبي، وقرءوا آيات الآفاق عبر التفكير العقلي، وقرءوا آيات الأنفس عبر التبصر الروحي، فستجتمع لهم مقاليد الفاعلية وأولها وحدة المعرفة التي تنتج فاعلية عالية في صناعة الحياة ووحدة متماسكة أمام الأمم الأخرى، مما يهبها

القوة والعزة والكرامة!

٢- واحدة الإله:

من المعلوم أن عرب ما قبل الإسلام كانوا على بقية من حنيفة الخليل إبراهيم عليه السلام، لكنهم مع المدى انحرفوا نحو الشرك، وأصبح لهم ٣٦٠ صنماً يعبدونها لتقربهم إلى الله زلفى كما زعموا ظانين أنهم على حق، والعجيب أن إله إبراهيم عليه السلام (الله عز وجل) كان يجمع شتاتهم لكن توغلهم في الشرك جعلهم يتفرقون؛ إذ أصبح لكل قبيلة صنم أي إله مختلف!

ونتيجة طول الأمد في الشرك واعتياد التعدد في الآلهة، أصابت مشركي العرب الصدمة، حينما دعاهم النبي ﷺ للإيمان بإله واحد وإفراده بالعبودية، فقالوا كما سجل القرآن تعجبهم: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥]، ونلاحظ الصدمة في تساؤلهم الاستنكاري: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾، واستخدام حرفي التأكيد إن واللام الذي سبق كلمة شيء، ثم اختيار كلمة عجاب وهي أبلغ من عجيب لأنها تفيد مجاوزة العجب إلى الاستغراب والاندعاش وصولاً إلى الصدمة!

وتعلمنا هداية القرآن في هذا السياق أن ننطلق في التربية مما هو معلوم إلى ما هو مجهول ومما هو مقبول إلى ما هو مرفوض، فقد كان المشركون على بقية من دين إبراهيم عليه السلام، ولذلك لم يكونوا ملحدين ينكرون وجود الله بل كانوا يعترفون بربوبيته ويقولون بأنه هو من خلقهم ورزقهم وخلق السماوات والأرض، فبنى القرآن على هذا الأصل مؤكداً لهم أنه ينبغي عليهم إفراده في الأمر كما أفردوه في الخلق، قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، والأمر هو الطاعة التامة

بحيث لا يجدهم الله في مواضع النهي ولا يفقدهم في مواضع الأمر!

ومما يؤكد مركزية الوجدانية في منظومة القيم القرآنية، قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابُ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤]، فقد

جاءت الآية في سياق الحوار مع أهل الكتاب (نصارى نجران) الذين تجمعهم مع المسلمين رابطة الإسلام بدائرته الواسعة، حيث تنبثق قيم الحرية والكرامة والعدالة من توحيدهم لله الذي خلقهم خلقة واحدة، وكرمهم على كثير ممن خلق وجعلهم أحرارًا لا يعبدون أحدًا سوى الله!

وإذا خاض المسلمون حوارًا مع غيرهم، كما فعل النبي ﷺ مع نصارى نجران، فإن من مقتضيات الحوار الليونة ومخاطبة العقول والقلوب بالتي هي أحسن، مع استخدام المنطق العقلي وما يقتضيه من إظهار إمكانية اتباعهم إن برهنوا أنهم على الحق، كما قال تعالى لرسوله ﷺ:

﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبْدِينَ﴾ [الزخرف: ٨١]، ولكن بعد رفض أولئك لحجج المسلمين وإصرارهم على ما هم فيه، فينبغي أن لا يتسلل إلى عقولهم أي احتمال ولو كان بسيطًا عن إمكانية تنازل المسلمين عن أي من ثوابت عقيدتهم، بمعنى ضرورة إظهار المسلمين بعد تولي أولئك مدى التحامهم بدينهم واعتزازهم بالإسلام!

٣- واحدة الأنبياء والرسالات:

جعل القرآن الكريم من صفات المؤمنين الإيمان بجميع الأنبياء والمرسلين سواء الإيمان الإجمالي بجميع من أشار إليهم القرآن بدون ذكر حينما قال: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤]، وقوله: ﴿مِنْهُمْ مَّنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّنْ لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨] أو الإيمان التفصيلي بمن ورد ذكرهم في القرآن وعددهم (٢٥) وهؤلاء

مجرد نماذج للأنبياء.

ومن هدايات القرآن في هذا المضمار الاستفادة من كل قيمة أو فكرة إيجابية نافعة في ما نسب إلى الأنبياء المذكورين في القرآن أو المحتملين؛ ذلك أن أصل الدين واحد، فقد قال تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدْلُهُمْ أَقْتَدِ﴾ [الأنعام: ٩٠]، ثم (إن الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها)!

وينبغي استثمار وحدة أصل الديانات في تواصل المسلمين مع أتباع الديانات الأخرى وخاصة النصرانية واليهودية لتعريفهم بالإسلام ومجادلتهم بالتي هي أحسن، مع التعاون معهم في أي قواسم مشتركة تعظم حقاً لله أو حقاً من حقوق الإنسان، كما قال تعالى في سياق الحديث عن مشركي قريش: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْرِ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢]، وكأن البر هنا عنوان لحقوق الناس مثل تعظيم الأشهر الحرم، والتقوى عنوان لحقوق الله مثل تعظيم البيت الحرام!

وبالطبع فإن الحوار مع أصحاب الأديان الأخرى لا يعني التنازل عن أي من ثوابت الدين أو التفريط بمصالح الأمة الكبرى، ومما يجدر ذكره في هذا الشأن أن القرآن -بعد إيراده لوحداية الله وما ينسجم مع هذه الواحدية من صفات-، جاء قوله تعالى: ﴿فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ﴾ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ﴿[يونس: ٣٢]، بمعنى أن الله كما ورد ذكره في القرآن الكريم هو ثابت الثوابت بمصطلح اليوم، ويستحيل التنازل عن أي شيء يتعلق به مما ثبت بنصوص من الوحي الكريم.

٤- واحدة القرآن الكريم

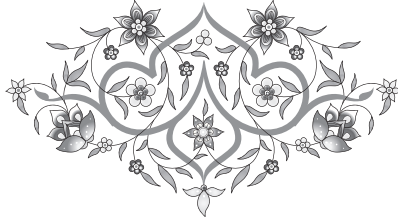
شن القرآن الكريم الغارة على المتشيعين الذين جعلوا القرآن عِصِينَ أي أبعاضاً مختلفة في التقدير والقبول والعمل، فقال تعالى: ﴿كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ﴾ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِصِينَ ﴿٩١﴾ [الحجر: ٩٠-٩١]، ونهى عن الوقوع في هذه الآفة نهياً قاطعاً، حينما تحدث عن إيمان بني إسرائيل ببعض الكتاب وكفرهم ببعض الآخر، وذلك بأن وجه لهم سؤالاً استنكارياً يقول: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة: ٨٥]؟! وهذا أبلغ من النهي المباشر!

ومن المعلوم أن الكتاب اسم من أسماء القرآن مع أن المصطلح يطلق على أي كتاب ألفه أي إنسان، ومن يتمعن في سر تسمية القرآن بالكتاب، سيجد أن من أسرار التنويه بالوحدة البنيوية والموضوعية للقرآن الكريم، فهو متشابه في فصاحته وبلاغته، ومتكامل في تعاليمه وهداياته، حيث لا تناقض ولا تعارض بين أي من توجيهاته رغم تنزله خلال ٢٣ عاماً!

ومن معاني الكتاب أنه وحدة واحدة لا تقبل التجزئ والتبعيض، ويرفض الاستبعاد لأي من تعاليمه مثلما لا يقبل أي كتاب نزع صفحة من صفحاته، وإذا حدث ذلك فإنه لا يبقى سليماً، بل ويتعرض من فعل ذلك لانتقامه، كما أوضحنا ذلك في فصل انتقام القرآن من كتابنا تدبر القرآن!

ولأن المولى يعالج كثيراً من الآفات التي يعلم أن المسلمين سيقعون فيها من خلال قصص بني إسرائيل، فقد عاب على هؤلاء القيام بقرطسة كتابهم المقدس أي قيامهم بالتعامل مع التوراة والإنجيل كقراطيس منفصلة عن بعضها، ثم إظهار ما يتناسب مع أهوائهم ويحقق رغائبهم ويتسق مع تقاليدهم الاجتماعية وعصبياتهم الفئوية،

ويخفون ما يتعارض معها، فقال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَن أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجَعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا ءَابَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١]،
ولأن تجزيئ القرآن ينبعث من عدم توحيد الله بصورة صارمة فقد
بدأ الآية بقوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾.



الوسطية والاعتزان

تسلك العقيدة الإسلامية مسلكاً وسطاً بين سائر العقائد- (الملل السماوية والنحل الأرضية)-، ويتضح ذلك من خلال النقاط الآتية:

١- الإيمان زاد الحضارة: إن الفهم الحقيقي للإيمان كما ورد في الرؤية القرآنية يجعل من الإيمان اليقيني بـ (عالم الغيب) أداةً للتعمق العملي في (عالم الشهادة)، حيث يحضر الإيمان بفاعلية في استخلاف الإنسان عن الله باستصلاح الأرض وصناعة الحياة، مما يُمكنه من إقامة الحضارة المنشودة، ومن البروز في مقام الشهود الحضاري المشار إليه في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]. وكلمة شهداء الواردة في الآية هي جمع شاهد وشهيد، وحينما نتأمل هذه الكلمة في القرآن فسنجد أنها تحمل معاني العلم والإحاطة والشمول والحضور والمسؤولية، وهذه هي متطلبات الشهود الحضاري ووظائفه، لمن يتدبر القرآن الكريم ويعرف مراده من الأمة، وهذه بعض الإشارات السريعة التي تؤكد هذا الأمر:

أ- المسؤولية:

إن أمة الإسلام مسؤولة عن بقية الأمم، حيث ينبغي أن تُبرز لها الصورة الناصعة للإسلام بسلوكياتها أولاً ثم بدعوتها عبر مختلف وسائل وأساليب الدعوة، ولا شك بأن الأحوال أبلغ من الأقوال، ونأخذ هذا المعنى من شهادة الرسول ﷺ على أمته وكذا كل الأنبياء على أممهم، قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]، وقال -عز من قائل- لرسوله محمد ﷺ: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الفتح: ٨]، ومن مقتضيات الشهود والشهادة المسؤولية والدخول من أبواب متفرقة من

أجل التبليغ والتذرع بكافة الوسائل والأساليب التي تحقق الهدف المنشود بأعلى درجات الكفاءة.

ب- الرقابة والإتقان:

قال تعالى ﴿أَحْصِهِ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المجادلة: ٦]، أي والله على كل شيء رقيب واستخدم كلمة (شاهد) ليدفع الناس للتفاني والإتقان فكأنه يشاهد ما يفعلون بذاته، وهذا ما ينبغي أن تقوم به أمة الإسلام بحيث تمتلك خزاناً معرفياً ضخماً أو بنك معلومات عن مختلف شعوب العالم، حتى تتعامل مع كل بلد وأمة بطريقة علمية تحقق الهدف المنشود بأفضل كفاءة ممكنة.

ج- الحضور والمشاركة:

وجاءت الشهادة بهذا المعنى في قوله تعالى على لسان ملكة سبأ اليمنية: ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ﴾ [النمل: ٣٢]، أي حتى تحضرون معي وتشاركوني في إبداء الرأي وصناعة القرار، وقال أيضاً: ﴿لَيْشْهَدُوا مَنَفِعَ لَهُمْ﴾ [الحج: ٢٨]، أي ليحضروا المنافع التي ستعود عليهم بالخير في الحال والمآل، وقال: ﴿مَّا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الكهف: ٥١]، أي ما شاركتهم خلق السماوات والأرض ولا حضروا هذا الأمر، ومن ثم فإن على أمة الإسلام أن تكون حاضرة في صناعة الحضارة والمشاركة بفاعلية في عملية تبادل المنافع العالمية، وأن تكون يدها العليا بالعطاء؛ لأن اليد العليا خير من اليد السفلى.

د- إقامة الحجة:

ومن هذا المعنى للشهادة قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَهِدًا عَلَيْكُمْ﴾ [الزمل: ١٥]، أي يقيم حجة الله عليكم بالآيات والبينات،

وهذا ما ينبغي أن تفعله أمة الإسلام مع الأمم الأخرى، ما دام الله قد اصطفاها للشهود الحضاري، وهذا لا يعني أبداً الإكراه حتى الرسول ﷺ حينما دفعته رحمته الشديدة لتكثيف أساليب الدعوة بصورة تفوق الوضع الطبيعي؛ قال له تعالى بصورة استنكارية: ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩]!

هـ- العلم:

وتأتي الشهادة بمعنى العلم، كما في قوله تعالى: ﴿ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٥٢]، أي واعلم بأنا مسلمون، وقوله - عز وجل -: ﴿فَقُولُوا أَشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤]، أي اعلموا بأنا مسلمون، ومثلها قوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ [آل عمران: ٧٠]، أي وأنتم تعلمون، ومن هنا فإن أمة الشهود الحضاري ينبغي أن تحتضن سائر التخصصات العلمية التي تمكنها من الإبداع في عمارة الأرض والتفنن في صناعة الحياة وبأعلى درجات الفاعلية التي تجعل لها اليد الطولى والعزة في الأرض؛ بحيث تساعد الضعفاء والمحتاجين وتقيم موازين العدل بين الناس وتمنع الاعتداء على المستضعفين، وهذا الأمر من مقاصد الجهاد في الإسلام، كما ورد في قوله تعالى: ﴿وَقَتِّلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩]، والفتنة هنا تعني الإكراه لأي شعب من قبل أي شعب أو أمة على اعتناق ما لا يرضاه من الثقافات والأفكار والقناعات.

٢- اليسر والاعتدال: اليسر والاعتدال خصيصة إسلامية شاملة، تبدو واضحة في العقيدة والشريعة، وتتجسد في الشعائر التعبدية وسائر الأعمال الصالحة في واقع الحياة.

ونضرب المثل بالحج الذي يعد من أكثر العبادات مشقة، وبتأمل كل ما يحيط به من تعاليم سنجد أنه يجسد مقصد اليسر الإسلامي في أبهى صورة، فالحج غير مطلوب ابتداء إلا ممن استطاع إليه سبيلاً، وذلك في الصحة والمال والأمن.

وتراعي كثير من طقوسه الفروق الفردية بين الحجاج، فالمرء يطوف ويسعى وفق ما يمتلك من استطاعة، ويقف حيث تبلغ به رجلاه في عرفات، ويبيت في مزدلفة بقدر طاقته، ويختار من أنواع الحج الثلاثة ما يلائم ظروفه وقدراته، وإذا ارتكب محظوراً عمداً فإنه يذبح ما تيسر من الهدي، وورد في الأحاديث والسير أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يسألون النبي ﷺ عن كيفية مختلفة لمشاعر الحج، فكان يقول لكل واحد منهم: « افْعَلْ وَلَا حَرَجَ » رواه البخاري!

٣- التوازن بين المادة والروح وكذا بين الدنيا والآخرة: حينما نستعرض الخصائص العامة للإسلام سنجد أن التوازن من أهم هذه الخصائص التي تميزه، ويبدأ التوازن من تكوين الذات الفردية بين شقي القبضة الترابية والنفخة الروحية، ويمر على الأسرة ليوازن بين الأزواج والزوجات، ثم بين الآباء والأبناء، ويوازن في صرح المجتمع بين الحقوق والواجبات، إلى أن يصل إلى الموازنة بين الدنيا والآخرة.

ولا يمكن أن يصبح التوازن قيمة عابرة للمجالات بهذه الصورة، ما لم تكن نواة هذا التوازن متوازنة وهي الإنسان، فقد خلقه الله تعالى بطريقة متوازنة من القبضة الترابية والنفخة الروحية، وتعبده بإشباع حاجات الجسم والروح بطريقة متوازنة، وأودع منهج التوازن في القرآن الكريم طالباً من المؤمن أن يتدبر نصوصه حتى يحقق إنسانيته وعبوديته بطريقة متوازنة.

ومع أن الشعائر التعبدية من متطلبات النفخة الروحية فسيجد من يتأملها نصيباً للأجسام، وعلى سبيل المثال فقد ورد في سياق الاستعداد لموسم الحج قوله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ [البقرة: ١٩٧]، والأمر بالتزود في الآية يختص بالزاد المادي الذي يشبع حاجات الجسم، ثم ذكر بالزاد الروحي ليظل التعانق قائماً في كل آن بين الزادين المادي والمعنوي، ولتعاون حاجات الجسم ومطالب الروح في بناء الشخصية المتوازنة التي تستعمر الأرض وهي تتطلع نحو السماء، بحيث تُبَسِّتِ الدنيا وهي تَسْتَشْفُو الفردوس الأخروي!

ولوضوح هذا الأمر تماماً في بال النبي ﷺ فقد كان يدمج بين الدنيا والآخرة في أدعيته، كما فعل أثناء الحج، إذ كان أكثر ما يدعو بالدعاء القرآني: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١].

ولأن القرآن الكريم أحكمت آياته من لدن حكيم خبير، وصاغه من خلق البشر ويملك العلم المطلق بتركيباتهم وطبائعهم وبكل الموجودات في الأرض، فإن القرآن يقيم توازناً صارماً بين الدنيا والآخرة، وما يثير اندهاشنا في هذا الشأن هو أن التوازن بين الدنيا والآخرة في القرآن وصل إلى حد التساوي التام في عدد مرات ذكر كل اسم، فقد ذكر اسم الدنيا ١١٥ مرة وذكر اسم الآخرة ١١٥ مرة، وفي مرات كثيرة يتم ذكر الاسمين متجاورين مع تقديم الدنيا دوماً على الآخرة؛ لأنها دار العمل وتلك دار الجزاء، مع وجود إشارات مبثوثة في ثنايا القرآن إلى أن الدنيا مزرعة الآخرة وأن العروج إلى فردوس السماء يتم عبر فردسة الأرض وفق تعاليم الكتاب الذي أخبر -جل في علاه- بأنه يهدي للتي هي أقوم، وبالطبع فإن هذا ينطبق على كل ميادين الحياة وشؤونها!

ولا تخرج أي مفردة عبادية عن هذا التوازن، بما في ذلك الدعاء الذي يستمطر كرم الله ويستجلب عطاءه بنفس التوازن، ومن صور هذا الأمر قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١]، وبالطبع فإن كلمة حسنة هنا نكرة، وقد نكرها الله حتى تفيد عموم ما تحسن به الحياة سواء في الدنيا أو في الآخرة، حيث التوازن الدقيق بين الدنيا كوسيلة والآخرة كغاية.

٤- عدم الوقوع في الأمن من مكر الله أو القنوط من رحمته:

قد يتفاعل التكوين الترابي للإنسان مع كثرة النجاحات والحظوظ والإنجاز فيصاب المرء بالعجب والغرور، وربما انطبق ذلك على علاقته بالله وكثرة طاعاته فيستوطنه الأمن من مكر الله ويغلب الرجاء إلى أن يقع في المحذور، وربما أدت الصعوبات والعقبات التي تعترض طريقه، إلى زرع مشاعر الإحباط في نفسه، وإن ظل إيمانه يتناقص فإنه قد يقع في اليأس الذي هو صورة من صور الكفر بالله تعالى!

ومن أجل تحقيق التوازن في هذا المضمار، فقد قرن القرآن في عشرات المواضع بين التبشير والإنذار ومزج بين الترغيب والترهيب، ووجدنا وصف القرآن للمؤمنين يُبرز هذا التوازن، ففي معرض إيراده لصفات المتقين ورد اسم الرحمن في مقام العذاب والخوف، قال تعالى: ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٣٣]، فمن صفات المتقين الذين أزلفت لهم الجنة، أنهم كانوا في شدة ارتياحهم من الله لا ينسون أنه الرحمن الرحيم، وبالمناسبة فقد ورد اسم الرحمن في مثل هذا المثال في بضع مواضع من القرآن، حتى يظل التوازن بين الخوف والرجاء يستوطن وجدان المؤمن!

ولقد حَرَّمَ الإسلام على أتباعه السقوط في هُوءَ القنوط مهما كانت الأسباب؛ لأن اليأس موت للقوام المعنوي للإنسان، إذ يمنع صاحبه من الأخذ بالأسباب والبحث عن الفرص، ويجعله من أصحاب الظن السيء بالله!

وتعلمنا قصة يعقوب عليه السلام أن المؤمن الواثق بقدرته ربه وعدله ورحمته وحكمته، عندما تصيبه مصيبة فإنما يشكو بثّه وحزنه إلى الله، ويعلم أن الله لا يضيع أجر المحسنين، ويعتقد جازماً بأنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون!

ومن ثم فإنه يواصل السير في طريق الدأب ويستمر في عمل الصالحات ولو ظهرت علامات القيامة، مع التسلح بالرجاء أن تتحقق الأهداف ويصل إلى الغاية، ولسان حاله يقول كما قال يعقوب عليه السلام لأبنائه: ﴿يَبَنِيَّ أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْيِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْيِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]؛ فأمرهم باتباع الأسباب ونهاهم عن اليأس، مذكراً لهم بأن اليأس بضاعة الكافرين، ذلك أنهم لا يمزجون في تصوراتهم وتصرفاتهم بين عالم الشهادة وعالم الغيب!

وهكذا فإن الإيمان الحق لا يسمح للمؤمن بأن يدفعه الرجاء لمضاجعة الأمن من مكر الله والاتكال على رحمته، ولا لليأس بأن يصبح صخرة تمنعه من مواصلة السير في طريق الاستقامة على طريق الله، بل يضع هذه الصخرة بين سندان الأمل ومطرقة العمل، فيفتتها ويصل إلى تحقيق المراد.



العالمية والثبات

١- واحدة الخلق والكرامة:

في المنظور القرآني خلق الله الإنسان الأول من قبضة ترابية ثم أودع في الخلقة المادية نفخة روحية، وكل الناس ينحدرون من نفس هذا المكون الأول، مما أسس لواحدية الخلق والكرامة.

أ- وحدة الخلقة الإنسانية:

تكلم القرآن بصراحة ووضوح في العشرات من آياته عن واحدة الأصل الإنساني، سواء في الخلقة الأولى حيث التزاوج بين القبضة الترابية والنفخة الروحية، أو في الخلقة الثانية حيث التزاوج بين آدم وحواء ﷺ والانسلال من مائهما المهين.

وسنتوقف هنا مع آية بشيء من التأمل حتى يتم استخراج هذا المعنى من ظرفه الكلامي، فقد قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا﴾ [فاطر: ١١]، ولما كان الله يخاطب جميع البشر بصيغة الجمع، فمن المفترض وفق السياق اللغوي أن يتم التحدث بصيغة الجمع للتراب والنطفة، لكنه لم يفعل ذلك بل لجأ إلى المفرد حتى يؤكد على وحدة الخلقة الأولى، فآدم ﷺ مخلوق من تراب واحد وأبناؤه تناسلوا من نطفة واحدة التي هي نطفته الأولى المودعة في رحم حواء المخلوقة من ضلعه، وهذا ينسف بشكل قاطع دعاوى التمييز العرقي والسلالي، ويؤكد التساوي بين جميع البشر، وهي الحقيقة التي يقررها القرآن في عشرات الآيات القرآنية بمختلف الأساليب والصيغ، ومنها الصيغة الأنفة الذكر والتي تحتاج إلى قدر من التأمل.

ب- كرامة الخلق والأمر:

من مقتضيات الخلقة الواحدة واحدة الكرامة، فلقد كرم الله بني آدم ﷺ

حينما نفخ في أبيهم من روحه وأسجد لهم ملائكته وسخر لهم مخلوقاته، وفي ذات الوقت أبقي ميزان العدالة قائما من خلال تقسيم الكرامة إلى وهبية وكسبية.

ومن أجل أن نفهم المقصود هنا ينبغي أن نتذكر أن الله هو صاحب الخلق والأمر في هذا الوجود، كما قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وبالنسبة لقيمة الكرامة التي منحها للبشر فإن لها مستويين متصلين بحقيقتي الخلق والأمر:

المستوى الأول: الكرامة المتصلة بالخلق وهي الكرامة العامة الممنوحة لجميع البشر لكونهم بشرا خلقهم الله بيديه ونفخ فيهم من روحه وأسجد لهم ملائكته قبل أن يختاروا الإيمان أو الكفر، وهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

المستوى الثاني: الكرامة المتصلة بالأمر، وهي كرامة نسبية اكتسابية، حيث لا ينالها إلا من أرادوها، وذلك من خلال معيار متاح لجميع الناس، وهو الالتزام بتطبيق أوامر الله واجتناب نواهيه في كل نواحي الحياة التي تمتد إلى بضع وسبعين شعبة ينبغي اتباعها، مع تجنب الوقوع في ما يناقضها وهي بضع وسبعون كبيرة، وعنوان الائتمار والانتهاز هو التقوى التي تجعل المؤمن حريصا على أن لا يجده الله في مواضع الزجر ولا يفقده في مواضع الأمر، وقد ذكرت هذه الكرامة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣]، وهذه الكرامة لا يعلم حقيقتها ومقدارها إلا الله تعالى، وهذا ما تشير إليه فاصلة الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾؛ فهو يعلم خائنة الأعين

وما تخفي الصدور؛ ولذلك لا ينبني على التقوى حق دنيوي خلاف المعايير التي يتساوى فيها الجميع!

ج- واحدة الغاية والمصير:

يطالب القرآن الكريم كل مسلم بالدخول إلى الإيمان من سائر الشُعَب التي تنتظم شعاب الحياة بها، بحيث تتساقط ثمار الإيمان على الناس في كافة مجالات الحياة، كما قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [البقرة: ٢٠٨]، أي في كافة نواحي الإسلام بحيث تتحقق الغاية العبادية من خلق الإنسان: عقيدة وشرعية، أخلاقاً وقيماً، آداباً وسلوكاً، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، أي ليعبده جميع الإنس والجن في مختلف الأزمنة والأمكنة، بحيث تصبح الحياة محراباً للعبادة، كما قال الله لنبيه محمد ﷺ: ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٨٣] لَا شَرِيكَ لَهُ، وبذلك أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأَنْعَام: ١٦٢-١٦٣]، فالْمُؤْمِنُ يخضع لعظمة الله وينفذ توجيهاته كافة، فيحرص على الاستزادة من الإيمان حتى يصل إلى اعتلاء ناصية التقوى، وحينئذ لا يمكن أن يجده الله حيث نهاه ولا يفقده حيث أمره في أي من ميادين الحياة.

وما دامت الغاية من خلق الناس واحدة وهي عبادتهم لله، فإن مصيرهم واحد ولا علاقة له بأعراق أو ألوان أو جهات أو طوائف، حيث خلق الله الجنة لمن أطاعه وخلق النار لمن عصاه، مع الصرامة الكاملة في العدل الذي لا يهمل مقدار ذرة من عمل الخير أو عمل الشر، كما في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧] وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧-٨]، ولهذا التدقيق فقد خلق الله في

الجنة درجات وأوجد في النار دركات، فالمحسنون في الفردوس الأعلى من الجنة، والمنافقون في الدرك الأسفل من النار!

٢- الجمع بين الثبات والتغير:

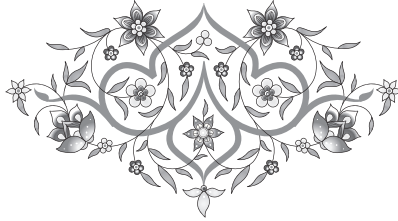
تتكئ صلاحية الإسلام لكل زمان ومكان على خصيصة الجمع بين الثبات والتغير، فالثبات يشمل الكليات والأصول والمقاصد وهي التي تمثل ضماناً وحدة الأمة وحفظ الملة في كل الأزمنة والأمكنة، أما المتغيرات فتتضمن مستجدات الحياة التفصيلية، وما يتصل بالدين من جزئيات وفروع ووسائل وأساليب، وهي التي تستوعب تنوع الناس في نفس الزمان والمكان ومن باب أولى في حالة تعدد الأمكنة والأزمنة. ولا شك بأن الثوابت مجموعة القيم والأحكام التي ثبتت بنصوص قطعية الثبوت والدلالة، وهي التي كان علماء السلف يسمونها (المعلوم من الدين بالضرورة)، بينما تشمل المتغيرات كل ما لا يدخل في هذا التعريف.

ونضرب المثل هنا بموضوع الحكم الذي فرضه الله على رسوله ﷺ، ففي آيات عديدة يأمره تعالى بأن يحكم بين الناس بما أنزل الله، ولا شك بأن المقصود هنا بما هو معلوم من الدين بالضرورة وثابت أنه حكم الله ووضح من النصوص مراده تعالى، لكنه تعالى في إحدى الآيات قال لنبيه محمد ﷺ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ [النساء: ١٠٥]، فلماذا قال في هذا المقام: ﴿بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾؟! ١٩

للإجابة عن هذا السؤال ينبغي أن نتذكر أن الحكم بين الناس يتصل في غالبه بمسائل ملتبسة وقضايا متشابهة وبمشاكل أظهرتها مستجدات الحياة، وهذه كلها تدخل ضمن منطقة المتغيرات، وليست من الثوابت

المعلومة من الدين بالضرورة، والحاكم هنا هو الرسول ﷺ ومن يقوم مقامه إلى قيام الساعة، وينبغي أن تكون مرجعية الحكم هي القرآن، وينبغي أن يستنبط الحاكم أحكام القضايا المستجدة في ضوء علل وأسرار الأحكام الثابتة في القرآن ﴿بِمَا أَرْسَلَ اللَّهُ﴾، وكأن الله يقول لرسوله ﷺ: ينبغي في حكمك أن تنظر إلى الفروع من خلال الأسرار الموجودة في الأصول، وأن تعيد الجزئيات إلى الكليات، وتجتهد في ابتكار أو اختيار الوسائل والأساليب التي تضمن تحقيق المقاصد والغايات أو تكيفها في ضوء معرفتك بأهدافها ومرادها!

وبالطبع فإن هذا الأمر يظل اجتهادًا بشريًا يحمل إمكانات الصواب واحتمالات الخطأ، غير أن الخطأ نادر أو قليل جدًا نتيجة هذا الانضباط المقاصدي الصارم، من خلال إعادة الجزئيات إلى الكليات والفروع إلى الأصول، والوسائل والأساليب إلى المقاصد، وبالجمع بين الثوابت والمتغيرات ضمن عدم تحريف الإسلام وعدم انحراف الأمة، مع تجديد أفكارها وتطور حياتها وابتكار ما يعين على عمارة الأرض وصناعة الحياة وفق المنهج الرباني.



السنية والسببية

١- الهداية الاختيارية:

من المعلوم يقيناً أن الله صاحب العدل المطلق، وأن القدرة على الاختيار هي مناط التكليف ومعيار الثواب أو العقاب، فلا ثواب لعمل صالح تم عمله كرها وكذا الأمر بالنسبة للعمل الفاسد.

وقد أوضحت آيات الكتاب المبين أن النتائج مرتبطة بالأسباب في كل مجالات الحياة من قوة وضعف وتقدم وتأخر وصحة ومرض وعلم وجهل ووحدية وتفرق وغنى وفقر، بل لقد ربطت الآيات بين الأسباب والهداية التي يظن الناس أنها مرتبطة بالله تماماً ولا شأن للإنسان بها، حيث أوضحت أن أسباب الهداية بيد الإنسان وأنه ما لم يقرع باب الهداية فلن ينفذ إليها، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ [يونس: ٩]، فإن الله هو من يهديهم ولكن بما اعتنقوا من إيمان وبما اكتسبوا من أعمال صالحة في مختلف شعب الإيمان، وهذا يعني أنهم اجتهدوا في الأخذ بأسباب الهداية فمنحهم الله النتيجة ومكّنهم من قطف الثمرة التي زرعها أيديهم؛ ذلك أن الإيمان الذي يستوطن القلب إنما هو ثمرة للتزواج بين التفكير العقلي والتأمل القلبي، مع تصديق ذلك كله بالعمل الجوارحي!

ويقرر المولى -عز وجل- بوضوح لا لبس فيه أن للنفس البشرية ما كسبت وعليها ما اكتسبت، ويؤكد مصطلحا الكسب والاكتساب حضور الاختيار الذاتي، بما يعني أن الحرية والقدرة مناط التكليف، وأنه لا ثواب ولا عقاب على أمر جاء خارج دائرة الاختيار أو فوق درجة

الاستطاعة، كما في آخر آية من سورة البقرة، قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا أُكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وهذا برهان آخر على أنه لا مكان للجبرية في الإسلام وأنه دين اليسر وعدم العنت أو التكلف، وأن المبدأ الذي يقوم عليه في هذا السياق هو ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾، وأن كل ما يحمل الإنسان فوق طاقته فليس من الإسلام في شيء وإن تلفع بأرديته وتلفظ بكلماته ورفع شعاراته!

وبالطبع فإن مشيئة الإنسان في اختيار الهداية أو الضلال، الاستقامة أو الانحراف، الصلاح أو الفساد، الإيمان أو الكفر، لا تتعارض مع مشيئة الله تعالى المطلقة وقدرته اللامحدودة في أن يقول للشيء كن فيكون، كأن يجعل البشرية كلها أمة إيمان أو أمة كفر، وهذا ما يؤكد قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٣]، فهو -عز وجل- بعدله الكامل يراعي إرادة البشر فيضل من يشاء الضلال باجتراحه لأسبابه، ويهدي من يشاء الهداية بمعاقرة لأسبابها، ويؤكد هذا المعنى ختام الآية الذي يقول: ﴿وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، أي سيسألكم الله يوم القيامة عن كل عمل عملتموه بملء إرادتكم وبمحض مشيئتكم!

٢- بين السنن الجارية والسنن الخارقة:

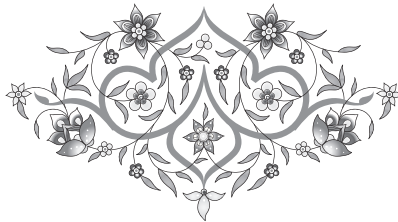
يمكن القول بأن الأسباب هي المنظومة التي تنظم قوانين عالم الشهادة، بينما يتحرك عالم الغيب في إطار الأسرار الربانية والألطف الرحمانية التي لا تخضع لقوانين عالم المادة.

وإذا كان الله وهو يكرم نبيه موسى بمعجزة قد أمره أن يضرب بعصاه

البحر لتنفلق مياهه، ويضرب الصخر ليتدفق ماؤه؛ احتراماً للأسباب وإظهاراً لأهميتها، فقد أبان لنا الله سبحانه بأن احترام الأسباب لا يعني تقديسها لأنها ليست فاعلة بذاتها، بدلالة أن المياه التي هي أصل الحياة قد أغرقت فرعون جاعلةً منه آية لمن خلفه، بينما صارت النار المهلكة برداً وسلاماً على إبراهيم عليه السلام!

وهذا يعني أن القرآن يأمر بالأخذ بالأسباب إلى أبعد مدى، وما ينهى عنه هو أن تلج الأسباب إلى القلوب ويعتقد الناس أنها تجلب النفع والضر من ذاتها؛ لأنها حينئذ تصبح أنداداً لله!

ويجعل القرآن التعامل مع السنن شيئاً لا بد منه، ووصلت صرامة القرآن في هذا السياق إلى حد أنه جعل من الضوابط التي ينبغي أن يلتزم بها من يدعو الله، عدم مصادمة السنن، ومن أمثلة ذلك دعاء إبراهيم عليه السلام، فقد دعا لأهل مكة فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ [البقرة: ١٢٦]، إذ أن مكة أسست في وادٍ غير ذي زرع، وكان يمكن للخليل إبراهيم عليه السلام أن يدعوربه الذي لا يعجزه شيء بأن يحيل هذا الوادي إلى جنة خضراء وارفة الظلال ووافرة الثمار، لكنه راعي هذه التركيبة الجيولوجية لأرض مكة، فدعا الله أن يرزق أهلها من الثمرات التي تنبت في المناطق الأخرى، وهذه لفظة في منتهى الأهمية لبيان مدى عناية القرآن بالسنن!



العملية والواقعية

من صفات القرآن أنه هدى، كما ورد في مواضع عديدة من القرآن، فالقرآن منهج هداية شامل ويتسم بالحس العملي والميل إلى الواقعية.

١- بناء الحس العملي:

ربط القرآن الكريم في عشرات الآيات بين الإيمان وعمل الصالحات عند وصفه للمؤمنين، فلا يوجد إيمان حقيقي بلا عمل صالح؛ ذلك أن الإيمان شجرة ثمارها الأعمال الصالحة التي تحقق وظيفة الإنسان في الأرض، فقد استخلفه الله في الأرض؛ ليقوم بعمارتها وفق تعاليمه، كما ورد في قوله -عز وجل-: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١]، مع التسابق لنيل أعلى الدرجات في هذا الابتلاء العبادي العظيم!

ونضرب المثل على هذا الأمر بسورة الماعون التي تفتتح هدايتها بتعجيب النبي ﷺ من صنف ممن يكذبون بالدين بأعمالهم وليس باعتقاداتهم القلبية أو أقوالهم اللفظية، فقال: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْإِيمَانِ﴾ [الماعون: ١]، ولم يذكر أركان الإيمان التي هي أركان الجانب الغيبي من الدين، ولم يذكر أركان الإسلام التي تمثل أركان الجانب المحسوس من الدين في العلاقة مع الله، وإنما عرّف المكذب بالدين فقال: ﴿فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ۖ وَلَا يُحِضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ [الماعون: ٢-٣]، ولكي يبين أن هذا الصنف هو من المسلمين لكنهم لم يفقهوا المقاصد ووقفوا عند الأشكال دون المضامين، فقد قال: ﴿قَوْلٌ لِّلْمَصْلِينَ﴾ [الماعون: ٤-٥]، حيث حضرت أبدانهم بالأداء وغابت عقولهم عن التفكير وقلوبهم عن

الخشوع، ومن ثم لم ينهلوا من صلاتهم زاد التقوى، ليصبحوا في ممارساتهم كالمكذبين بالدين، مضيفا مظهرا آخر من مظاهر التكذيب بالدين وهو الرياء ومنع الماعون عن الناس ﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ﴾ [الماعون: ٦-٧]، والماعون هو كل وسيلة أو أداة أو آلة يمكن أن تجلب مصلحة للناس أو تدرأ مفسدة عنهم، ولا شك أن بإمكان المرء أن يُعَدَّد في هذا الإطار مئات الأشياء التي يمكن إدخالها تحت مصطلح الماعون!

٢- تنمية الروح الإيجابية:

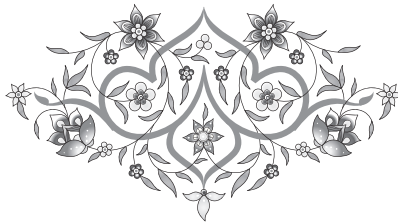
يبني الإسلام الروح الإيجابية في الشخصية المسلمة من خلال منظومة متكاملة من المبادئ والقيم والأخلاق والشعائر التعبدية والمعاملات السلوكية، وسنضرب مثلاً بمفردة صغيرة وهي الحج، وهنا سنجد العديد من محطات الحج التي تدفع المؤمن لكي يكون إيجابياً، كإباحة المُتاجرة لكسب المال، والحث على التعارف والتعاون مع سائر المسلمين من كل الاعراق والألوان والألسنة، وتحريم سائر المحظورات حتى ولو كانت صغيرة، وجَعَلَ من كَفَّاراتها تعزيزاً للروح الإيجابية، الفردية منها والجمعية، وحثَّ على اجترار الخيرات جميعها.

ثم إنه يربط هذه الروح الإيجابية بنماذج تاريخية خلّد ذكرها عبر مشاعر ومحطات الحج التي جسّدت مواقف تلك النماذج السامقة، كهاجر أم إسماعيل عليه السلام التي نزلت في واد غير ذي زرع ثقةً بالله بعد أن عرفت من إبراهيم عليه السلام أن هذا أمر الله تعالى، وعندما نفذ الماء وعطش وليدُها بحثت عن الأسباب التي ستحقق وعد الله ولم تركز على هذا الوعد، وظلت تسعى بدأب بين مكانين بعيدين، وهما ما أصبحا يُعرفان بالصفاء والمروة.

إن تخليد الإسلام لقلقها البشري وتحركها السّبي، هو تخليد لقيمة الإيجابية وإبراز لأهمية الأسباب ومشاعر المسؤولية، مع توطن مشاعر اليقين في القلوب.

ويعطينا القرآن درساً آخر من دروس الإيجابية في الحجّ، قال تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [البقرة: ٢٠٣]، فإن المقصود بذكر الله المبيت في منى، وأهم ما يتم عمله هناك هو رمي الجمرات التي تجسّد خطوات إبليس ووسوساته وتزييناته وزخارفه، وقد أوردت الآية الأمر بذكر الله في هذه الأيام ولم تتحدث عن الشيطان، إشارة إلى أن العامل الأساسي في الاستجابة للشيطان هو غفلة الإنسان عن الله، ولقد انتصر إبراهيم عليه السلام على الشيطان باستحضاره لجلال الله، وسيظل ذكر الله هو الدرع الواقي من سهام إبليس مهما بدت أنها قوية، مع أن القرآن الكريم يخبرنا بأن كيد الشيطان كان ضعيفاً وسيظل ضعيفاً أمام يقظة المؤمن وتدرعه بذكر الله!

إن ذكر الله يجعل المسلم في حالة من النباهة العقلية واليقظة الروحية والحساسية القلبية مما يلغي قابليته لتسلل الشيطان، لكن من لم يتحصّن منه بالذكر فإنه قد يصير مجرد لعبة بين يديه!



أقوم الهدايات العملية

- ✽ التأكيد على توقيفية العبادات.
- ✽ دور العبادات في تحقيق الهداية العملية.
- ✽ التلازم بين الاعتقاد القلبي والتكاليف العملية.
- ✽ دور العبادات في تحقيق مقاصد الهداية العملية وأهدافها.
- ✽ دور السببية في تحقيق الهداية العملية.

منذ فجر الرسالات السماوية، ظلت الهداية إلى الله تعالى هدفاً لكل دعوات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ولأهميتها افترضها الله - عز وجل - على المسلمين ووجههم إلى طلبها عند كل صلاة، قال سبحانه: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]؛ لأنها السبب الرئيس للأخذ بأيديهم إلى الجنة، التي هي بغيتهم، فيما جعل بقية الأدعية سنة.

وبرغم أن الاعتقاد القلبي هو: المقياس الأساسي لإيمان العباد؛ فإن هذا المقياس غير مرئي أو واضح، ولذلك لا يمكن الاطلاع عليه والحكم على صحته أو بطلانه إلا من خلال العمل. والعمل إما أن يكون شاهداً للإيمان ومصدقاً له أو شاهداً عليه ومكذباً له.

ولذلك عرّف الفقهاء الإيمان بأنه: «ما وقر بالقلب وصدقه العمل»، كما جاء عن الحسن بن أبي الحسين وسفيان الثوري قُولُ: «إِنَّ الْإِيمَانَ لَيْسَ بِالتَّحَلِّيِّ، وَلَا بِالتَّمَنِّيِّ، إِنَّ الْإِيمَانَ مَا وَقَرَ فِي الْقَلْبِ، وَصَدَّقَهُ الْعَمَلُ»، ومن هنا جعلت التكليف العملية في الإسلام، من صلاة، وزكاة، وصيام، وحج؛ معياراً لضبط هذا المقياس، والتحقق منه.

« فالأعمال الصالحة إنما هي ثمرة الإيمان بالله - عز وجل - وباليوم الآخر وبرسوله محمد ﷺ، وبها يظهر معنى الشهادتين بالعمل والسلوك، ولأهمية العمل الصالح جاءت الآيات كثيرة تتحدث عنه، فمرة تقرنه بالإيمان، ومرة أخرى تبين جزاءه الحسن، وأخرى تصرح بما ينفع الإنسان في آخرته من الأعمال الصالحة، وتارة تبين الآيات أن الأعمال الصالحة سبب لتكفير السيئات وغفران الذنوب وأن الخسارة تلحق الإنسان لا محالة إلا من آمن وعمل الصالحات، ومن هذه النصوص التي وضحت هذه المعاني قوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرُ ۝ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا

بِالصَّبْرِ ﴿٣٠﴾ [العصر: ١-٣]، وقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ
 أَنْتَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ
 مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]. فالتدبر في هذه الآية يلاحظ: أن قبول
 العمل يُشترط فيه:

أولاً: الإيمان، فلو عمل الكافر من الصالحات فلا يُثاب عليها، قال تعالى:
 ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]،
 وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُوا كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ
 الظَّمَانُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ
 فَوَقَّعَهُ حِسَابُهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [النور: ٣٩]، وقوله تعالى:
 ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ [الزمر: ١٣] الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي
 الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ
 كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ
 الْقِيَمَةِ وَزَنًا﴾ [الكهف: ١٠٣-١٠٥].

ثانياً: وهناك شرط آخر وهو اتباع رسول الله ﷺ، فلو ابتدع الإنسان في
 العمل زيادة أو نقصاناً فيما أمر الله به، فإن هذا العمل لا يقبل أيضاً،
 فالله - سبحانه وتعالى - لا يُعبد إلا بما شرع، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه،
 قال: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا خَطَبَ أَحْمَرَّتْ عَيْنَاهُ، وَعَلَا صَوْتُهُ، وَاشْتَدَّ غَضَبُهُ،
 حَتَّىٰ كَأَنَّهُ مُنْذِرُ جَيْشٍ يَقُولُ: «صَبَّحَكُمُ وَمَسَاكُمُ»، ويقول: بُعِثْتُ
 أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ، وَيَقْرُنُ بَيْنَ إِصْبَعَيْهِ: السَّبَابَةُ وَالْوُسْطَى، ويقول:
 «أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنَّ خَيْرَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ، وَخَيْرُ الْهُدَى هُدَى مُحَمَّدٍ، وَشَرُّ
 الْأُمُورِ مُحَدَّثَاتُهَا، وَكُلُّ بَدْعَةٍ ضَالَّةٌ» رواه مسلم.

ولو تأملنا إلى هذه التكاليف العملية (العمل الصالح) لوجدنا أنها
 تتميز بخصائص منها:

التأكيد على توقيفية العبادات

ولنا أن نتعرف على ذلك من الخصائص الآتية:

أولاً: أنها ربانية، فلم يتدخل في فرضها أي من البشر بما فيهم الأنبياء عليهم السلام، وهذه الخصيصة أُلقت على التكليف العملية نوعاً من القداسة والاحترام، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَأَعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ﴾ [الزمر: ٢٠].

ويترتب على ذلك كمال هذه التكليف وخلوها من التناقض والهوى والظلم، بخلاف تشريعات البشر التي يعتريها الجور والظلم، وتنعكس عليها طبيعية الإنسان بما فيه من نقص.

ثانياً: أنها عامة لا تحدد بأشخاص ولا أمة ولا زمان ولا مكان، فكل من آمن بالله - عز وجل - أصبح مكلفاً بموجب هذا الإيمان بهذه التكليف العملية، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

ثالثاً: أنها ثابتة ولا تقبل الزيادة والنقصان أو التبديل والتغيير، فلا يحق لأحد مهما كانت صفته أن يزيد بعدد الركعات، ولا أيام الصيام، ولا نصاب الزكاة أو غيرها من العبادات؛ فقد جاء تقدير هذه الطاعات في عددها وكيفية وزمانها ومكانها من الله عز وجل.

رابعاً: العبادات في الإسلام توقيفية، فلا يجوز إضافة أو إنقاص شيء منها؛ لأن ذلك يعتبر تجاوزاً يخالف ما أَرَادَهُ اللهُ، فقد ورد قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]، والمقصود بالعمل الصالح هو موافقته لشرع

الله - عز وجل -، وفي الحديث عن النبي ﷺ: «مَنْ أَحَدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ، فَهُوَ رَدٌّ» متفق عليه. والعمل الذي يحبه الله ويرضاه يجب أن يكون سالماً من الشرك الجلي الذي كان يمارسه المشركون في الجاهلية، والشرك الخفي الذي يكون فيه الرياء، والذي يمارسه المنافقون.

خامساً: نفي الوساطة بين العبد وربّه، والله - سبحانه وتعالى - طلب من عباده التوجه إليه في دعائهم وعباداتهم من غير واسطة، قال تعالى: (وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ) {غافر: ٦٠}. وقول تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ {غافر: ٦٠}، هناك آيات تدل على هذا المعنى دلالة أفضل من هذا وكما هو ملاحظ من الآيتين السابقتين نفي الوساطة بين المسلم وربّه في الدعاء، فلا يوجد كلمة قل هنا ﴿سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾، كما لا يوجد لدى المسلمين ما يعرف بكراسي الاعتراف كما عند النصارى، فللمؤمن أن يطلب مباشرة ما يشاء من الله - عز وجل - كما أن القرآن نعى على مشركي مكة عبادتهم الأصنام لتقربهم إلى الله زلفى؛ لأن فعلهم ذلك الشرك وللأسف فقد تردى حال بعض الأمة، ووقعوا من حيث يعلمون أو لا يعلمون في الشرك، فانتشرت بدع التوسل بالقبور والمقبورين، مع العلم أن الله - سبحانه وتعالى - ما أرسل الرسل إلا لإثبات التوحيد لله وحده.

سادساً: تتطابق هذه التكاليف مع الفطرة السليمة: فالإسلام دين الفطرة، قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتُ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ {الروم: ٣٠} لذا نجد التكاليف العملية في

الإسلام لا تصطدم أبداً بالفطرة السليمة من حيث إمكانية القيام بها وعدم مشقتها على المكلف المؤمن، فالالتزام الكامل بالإسلام الذي هو دين الفطرة يحقق للمسلم حياة طيبة متكاملة مع ربه ومع الناس ومع المجتمع، في كل نواحيها الروحية والخلقية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية.

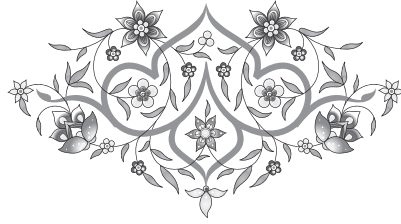
سابعاً: التكليف التعبدية قائمة على التيسير، فالله تعالى أعلم بعباده وهو الذي خلقهم، قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [المالك: ١٤]. فكل التكليف راعت حالات الضعف والقوة والنشاط والفتور التي تعترى الإنسان، وفوق ذلك فإن العبادات حق لله - عز وجل - فهي مبنية على المساحة، قال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النساء: ٢٦-٢٧]. ويقول الرسول ﷺ: «إِنَّ هَذَا الدِّينَ مَتِينٌ، فَأَوْغَلُوا فِيهِ بَرْقِقٍ» [رواه أحمد]، وقال ﷺ: «إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَأَبْشِرُوا، وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ» [رواه البخاري].

ورغم أن العبادات في مجال استطاعة كل مكلف مسلم ليقوم بها دون مشقة؛ فإنه إذا طرأت أحوال تحول بينه وبين أدائها، فإن الله - سبحانه وتعالى - قد راعى هذه الأحوال بالتيسير عليه، فرخص له في أدائها على أي كيفية بعيداً عن المشقة والعناء.

فإن لم يجد الماء مثلاً فله أن يتيمم، لقوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَٰكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ

نِعْمَتُهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾ [المائدة: ٦]

والمسافر يمكن أن يؤدي الصلاة جمعاً وقصراً، ويمسح على الخفين لثلاثة أيام، وفي حال الخوف والقتال فإنه يصليها بالوضع الذي هو عليه، وفي حال المرض يصلي كيفما استطاع، بالإيماء بالرأس أو بالعينين، والصيام إذا كان مريضاً فله أن يفطرو ويقضي في أيام آخر، قال تعالى: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٥﴾﴾ [البقرة: ١٨٤]، فهذه التكاليف التي فرضها الله على المسلم بيسرها وسهولتها وملائمتها لأحوال الناس تساعد المسلم على أدائها دون مشقة أو عناء.



دور العبادات في تحقيق الهداية العملية

وهذه العبادات في حقيقتها رحمة للمؤمنين، فلو تأملناها لوجدنا أنها تضم الكثير من الفوائد، والتي يلمسها المؤمن مع تكرار أدائها، من ذلك:

أولاً: الصلاة:

١- تمنح الصلاة المسلم الطمأنينة التي يحتاج إليها، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، وكان عليه الصلاة والسلام إذا حزبه أمر اتجه إلى الصلاة، وكان يقول: «أَرْحَنَا بِهَا يَا بِلَالُ» رواه أحمد وصححه الألباني.

٢- الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، قال تعالى: ﴿أَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، وذلك أن تتابع الفروض والالتزام بها يمثل عصمة مؤقتة، ولكنها بتقارب الفروض تكون مستمرة، فتمنع المؤمن من الزلل.

٣- أنها تؤكد معنى الإيمان لدى المسلم الذي يتحرى الصلاة في المسجد، قال ﷺ: «إِذَا رَأَيْتُمُ الرَّجُلَ يَعْتَادُ الْمَسْجِدَ، فَاشْهَدُوا عَلَيْهِ بِالْإِيمَانِ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [التوبة: ١٨]» رواه الترمذي.

٤- أنها تمنح لياقة لبدن المؤمن، فالركوع والسجود، وبقية الحركات في الصلاة، تعتبر تمريناً للمحافظة على الجسم نشيطاً، وكلما زادت عدد ركعات الصلاة كان ذلك أفضل لجسم الإنسان.

وللصلاة أهمية كبيرة، فقد وردت الكثير من الآيات

والأحاديث في ذلك، وتركها يوجب دخول النار، قال تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ﴾ ٤٢ ﴿قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمَصْلِينَ﴾ ٤٣ ﴿وَلَمْ نَكُ نَظْعُمُ الْمِسْكِينَ﴾ ٤٤ ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ﴾ ٤٥ ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ ٤٦ ﴿حَتَّى أَتَيْنَا الْأَيْقِينَ﴾ ٤٧ ﴿[المذثر: ٤٢-٤٧].

وقد جعلها الرسول ﷺ الفارق بين المسلم والكافر، قال عليه الصلاة والسلام: من حديث أبي سفيان، قال: سَمِعْتُ جَابِرًا، يَقُولُ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ الشَّرِّ وَالْكَفْرِ تَرْكُ الصَّلَاةِ» وقال «الْعَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمُ الصَّلَاةُ، فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ»

قال الترمذي حديث حسن صحيح غريب.

ثانياً: الصيام:

يعتبر الصيام أحد التكاليف التي كُلف بها المسلم، وقد كُلفت به أيضاً الأمم السابقة، وهو يقدم لنا الكثير من الفوائد منها:

١- أن الصيام يؤدي رسالة للمؤمن تجاه إخوانه من فقراء المؤمنين الذين يندر حصولهم على الزاد، فيشعر بالجوع ويتذكر إخوانه من الفقراء، وهذا يدفعه إلى بذل المال في سبيل الله، ليعود الأجر إليه في الآخرة.

٢- أن الصيام فريضة افترضها الله -عز وجل- على المؤمنين، وهو من أحب الأعمال إلى الله؛ كونه لا يدخله الرياء، وجعل جزاءه من عنده هو دليل أهميته، قال الرسول ﷺ فيما يرويه عن ربه: «كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ ﷻ لَهُ إِلَّا الصَّوْمُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ» رواه البخاري ومسلم، فتصور مدى الأجر العظيم عندما يأتي من الكريم، بينما بقية العبادات والله أعلم. يتم الجزاء فيها بقدر العمل، والله يضاعف لمن يشاء، والله واسع عليم.

٣- يمنح الصيام الصائم فوائد صحية، حيث يريح المعدة شهراً في

السنة، ويشعر المؤمن بذلك عند الانتهاء من شهر رمضان.

٤- أن الصيام يقود إلى التقوي، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣]. وقد أكد القرآن على أهمية الصيام، حتى بعد أن استعرض الرخص في الفطر للضرورات، فقال تعالى: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٤]

ثالثاً: الزكاة:

تمثل الزكاة الجانب الاقتصادي الذي تقوم عليه الدولة الإسلامية، والزكاة فريضة مالية تهدف إلى:

١- سد جوانب الحاجات للفقراء والمساكين الذين ذكروا في آية مصارف الزكاة، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغُرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٠]. والأصناف المذكورة في الآية يمثلون جزءاً كبيراً من أي مجتمع.

٢- أنها لا تمثل عبئاً على المكلف، فهي نسبة ضئيلة تقدر ٢,٥٪ فقط من المال المستحق عليه الزكاة، وقد وضعت شروط وإجراءات على إخراجها، ولا توجد دولة في العالم لا تأخذ المال من رعاياها لتعيد إنفاقه عليهم، فالضرائب والجمارك وغيرها من الموارد هي التي تمد الدولة بالحياة والاستقرار، وهي التي تبني بها الدولة، قال أحمد شوقي:

بالعلم والمال يبني الناس مُلكهم لم يبنَ ملك على جهل وإقلالٍ

٣- تحقق الزكاة مبدأ التكافل الاجتماعي ليسود التعاون والالفة والمحبة

بين أبناء المجتمع.

٤- ونظراً لأهمية الزكاة فقد ذكرت في (٢٧) موضعاً من القرآن الكريم مقترنةً بالصلاة، وهذا الاقتران بين ركنين من أركان الإسلام يدل على أهمية الزكاة ودورها في تحقيق العدالة الاجتماعية، وتقوية الروابط بين المسلمين.

رابعاً: الحج:

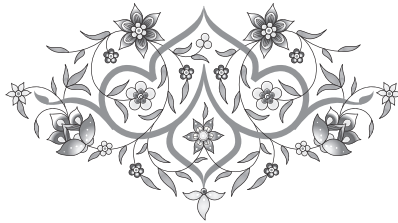
من العبادات التي تجمع بين الجهد البدني والمالي، وتؤدي مرة واحدة في العمر إذا توفرت الظروف والأسباب لدى المؤمن للقيام بها هي الحج قال تعالى: ﴿فِيهِ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧]، وهي تكتسب أهمية لما فيها من الفوائد الكبيرة للمسلم، والتي أهمها:

١- أن الحج فرصة لحصد الثواب الجزيل، وغفران الذنوب، قال رسول الله ﷺ: في حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ حَجَّ لِلَّهِ فَلَمْ يَرُفْثْ، وَلَمْ يَفْسُقْ، رَجَعَ كَيَوْمَ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ» [رواه البخاري].

٢- أن الحج مؤتمر سنوي يلتقي فيه المسلمون من كل حدبٍ وصوب ليتدارسوا شئونهم ويتعرف بعضهم على أحوال بعض، وبالتالي فهو يمثل رابطاً بين المسلمين في كل العالم.

ومما سبق نلاحظ أن هذه التكاليف العملية ثابتة لا تتغير ولا تتبدل، ولا يحق للمؤمن أن يعترض على شيء منها ولو لم تظهر له الحكمة من فرض هذه التكاليف، فهي تمثل قمة العبودية والطاعة لله - عز وجل - والإذعان لأوامره وقضائه، قول تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ

يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ﴿٣٦﴾ [الأحزاب: ٣٦]، وهذه
التكاليف تحقق الهدف السامي لخلق الإنسان، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ
الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦].



التلازم بين الاعتقاد القلبي والتكاليف العملية

مما سبق رأينا أنواعاً من العبادات العملية وثمراتها، وهناك روابط بين العبادات والمعتقدات تتمثل فيما يلي:

أولاً: التوجه بالعبادة لله وحده، فلا يجوز التوجه بشيء منها لغير الله - سبحانه وتعالى -، وهذه الميزة هي التي يؤكد عليها الله - سبحانه وتعالى - بقوله: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ٥٥﴾ [البينة: ٥٥]، وهذا ينسجم مع الغاية التي خلق لأجلها الإنسان، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦]، فالإخلاص في العبادة ينقيها من كل الشوائب، فتصير خالصة ليقبلها الله - عز وجل -، وفي الحديث عن رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشْرَكَهُ» [رواه مسلم]. ولذا كان الإخلاص من أهم الشروط لقبول العمل.

ثانياً: التلازم بين الاعتقاد القلبي والعمل فإذا لم يطابق العمل ما وقر في القلب أو العكس كان رياءً أو نفاقاً لا يقبله الله - عز وجل - وقد جاءت الآيات القرآنية لتؤكد على هذا المعنى، ابتداءً من أول القرآن حتى آخره وبلغ عدد الآيات التي تؤكد على ذلك حوالي ٥٢ آية في القرآن كله، وسنورد بعضاً من هذه الآيات:

قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رَزَقُوا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَتُوا بِهِ مُتَشَبِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ٢٥﴾ [البقرة: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا

الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾ [النساء: ١٢٢]، وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الأعراف: ٤٢]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [الحج: ٢٣]، ولو تتبعنا الآيات القرآنية كلها فإننا نجد أنها تؤكد على هذا التلازم بين الاعتقاد القلبي والعمل، وهذا التلازم جعل العمل والاعتقاد كحلقة واحدة لا غنى لأحدهما عن الآخر، وعليه فمن اعتقد الإيمان في قلبه دون أن يعمل بموجب هذا الإيمان، فلا قيمة لإيمانه هذا، كالذي يرفض أن يُصلي جحوداً، وهو يدعي الإسلام.

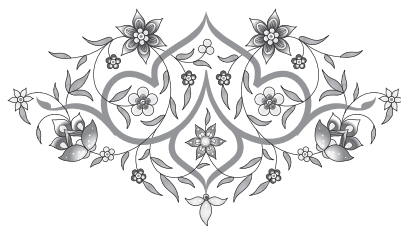
ثالثاً: ارتباط الهداية العملية بالغاية: من المعلوم أن كل إنسان في أدائه للعبادات هدفه دخول الجنة ورضا الله - عز وجل -، وهما غاية المؤمن، ولذا فقد رتب الله - عز وجل - الجزاء في الآخرة على التكليف العملية، وعلى الاعتقاد القلبي معاً، وجعل بينهما ترابطاً يظهر من خلال الآيات، كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّيْهُمْ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢]، وقوله تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤]. ويبدو من خلال هذه الآيات الترابط الوثيق بين الإيمان والعمل من جهة والغاية في الجزاء الأخروي من جهة أخرى، فيترتب الآخر على الأول.

رابعاً: لم تشرع التكليف ليوم أو يومين أو أسبوع أو شهر، وإنما شرعت للعمر كله، فالصلاة لا يمكن أن يتوقف الإنسان عنها وهو

قادر على أدائها، فمنذ أن يبلغ المسلم سن التكليف إلى أن يتوفى فهو مطالبٌ بأدائها باستمرار، وهي من التكليف اليومية، والصيام محدد بشهر في العام، فلا يمكن تركه أو تأجيله إلى عام آخر، ولذا فإن الاستمرارية في عمل المسلم بالتكاليف الشرعية دائمةٌ، وهي الحبل الوثيق الذي يصل العبد بربه، فالمسلم يناجي ربه خمس مرات في اليوم والليلة، إضافة إلى السُّنن والنوافل وقراءة القرآن والأذكار.

خامساً: ترتبط هذه التكاليف بالإتقان والإحسان، فالله - سبحانه وتعالى - لا يقبل عملاً مجرداً من الإتقان، والإتقان مطلوب سواءً في أعمال الدنيا أو الآخرة، قال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُحِبُّ إِذَا عَمَلَ أَحَدُكُمْ عَمَلًا أَنْ يُتْقِنَهُ» رواه الطبراني وصححه الألباني.

وكان الصالحون من هذه الأمة يتحرّون، مسألة الإتقان، ويبالغون فيها خشية ألا تقبل أعمالهم.



دور العبادات في تحقيق مقاصد الهداية العملية

لا شك أن من وراء كل تكليف من الله - عز وجل - هدفاً ومقصداً يرجى تحقيقه، ومن مقاصد الهداية العملية للعبادات ما يأتي:

أولاً: توحيد الله - عز وجل - بأنواع التوحيد (الربوبية الألوهية الأسماء الصفات) الأمر الذي يعزز الإيمان بالله وتوحيده لدى المسلم.

ثانياً: تقوى الله التي تقود إلى تزكية النفس، والوصول بها إلى درجة الإحسان، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨].

ثالثاً: التأمل والتفكير، إن هذه العبادات تدفع المسلم إلى التفكير في خلق الله - عز وجل -، الأمر الذي يقيم صلة بين الكون والمسلم، فتزداد لديه عظمة الله - عز وجل - وهو يرى حركة الكون والأفلاك في تنظيم وتناغم يعجز الإنسان أمام عظمته.

رابعاً: التذكير بالله - عز وجل - نظراً لتتابع التكليف العملية في اليوم والليلة (الصلاة) مثلاً، فإن ذلك أدعى أن يكون الإنسان في حالة التذكر لله - عز وجل - في كل لحظة من لحظات حياته، الأمر الذي يجعل الإنسان تحت رقابة دائمة من الله - عز وجل - ويستشعر معية الله - عز وجل - له، فلا يقوم بارتكاب المعاصي.

فكل ما سبق من تقوى الله - عز وجل - والتذكير به وتزكية النفس يقود إلى الهداية والرشاد، ويعصم من الضلال والانحراف، وبالتالي يسلم المؤمن من عذاب الله - عز وجل - يوم القيامة، ويحظى بالقرب من الله تعالى ومعيته.

خامساً: هناك علاقة طردية بين الإيمان والأخلاق، فكلما زاد الإيمان ارتقت الأخلاق، فتقوية الإيمان ستتبع حتماً ارتقاء الأخلاق، وقد عُرِفَت الأخلاق بأنها: الطبع والسجية، أو هي: (عبارة عن هيئة في النفس راسخة، عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر، من غير حاجة إلى فكر وروية)، وتزكية النفس وتقوية الإيمان، لا تتأتيان إلا بالتدريب المستمر للنفس، وإبعادها عن مواطن الشر، والالتزام الكامل بالتكاليف العملية، مما يجعل الإنسان يترقى في مدارج العلو إلى الله - عز وجل - وبالتالي يتصف بالأخلاق الحميدة.

وللأخلاق أهمية كبرى في الإسلام، حيث يقول الرسول ﷺ: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ» رواه البخاري في الأدب المفرد.

وقوله ﷺ: «إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحْسَنَكُمْ أَخْلَاقًا، وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ الثَّرَّارُونَ وَالْمُتَشَدِّقُونَ وَالْمُتَفَيِّهُونَ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَدْ عَلِمْنَا الثَّرَّارُونَ وَالْمُتَشَدِّقُونَ، فَمَا الْمُتَفَيِّهُونَ؟ قَالَ: الْمُتَكَبِّرُونَ» [رواه الترمذي].

وقد كان النبي ﷺ يدعو ربه ويقول: «اللَّهُمَّ اهْدِنِي لِأَحْسَنِ الْأَعْمَالِ وَأَحْسَنِ الْأَخْلَاقِ، لَا يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا إِلَّا أَنْتَ، وَقِنِي سَيِّئَ الْأَعْمَالِ وَسَيِّئَ الْأَخْلَاقِ لَا يَقِي سَيِّئَهَا إِلَّا أَنْتَ» [رواه النسائي].

ولما أراد الله - عز وجل - أن يصف نبيه ﷺ بوصف جامع قال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

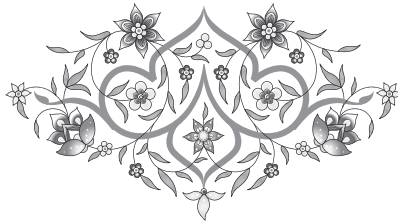
فالمؤمن يلتزم بالقيم الأخلاقية، لما لها من فوائد تعود عليه وعلى المجتمع، فيلتزم الصدق ولا يكذب، ويتبعد عن الرياء والعجب والفخر ورذائل السلوك، وبهذا تتحقق له التزكية والرضا من الله تعالى

ويحظى بقرب النبي ﷺ في الجنة.

سادساً: تحقيق قيم العدالة والمساواة: إن المجتمع الذي تسوده المحبة والرحمة واللطف والقائم على تعاليم الله - عز وجل - واحترامها تتجلى فيه قيم العدل والرحمة والتسامح والغفران، الأمر الذي يجعل من هذا المجتمع مجتمعاً مثالياً تسوده كل القيم التي يرضاها الله - عز وجل - فأفراده يتشاركون كل الظروف التي يمرون بها كأفراد، ويمر بها المجتمع كمكوّن واحد.

سابعاً: الاهتمام بالتعليم والتربية للأفراد، بحيث يتربي منذ نعومة أظفاره على طاعة الله - عز وجل - والامتثال لأوامره ونواهيه وتصبح لدى الفرد المسلم مرجعيته التي هي مرجعية كل المسلمين: القرآن، والسنة.

ثامناً: الاهتمام بالجانب الاقتصادي، عن طريق زيادة الإنتاج لأفراد المجتمع، مما يدعم اقتصاد البلاد واستقلالها، وبالتالي تنبثق عن ذلك نُظم تحكم السياسة والعدالة والدفاع عن الوطن والدين، وكل ذلك يؤدي إلى تحقيق الخلاص للفرد والنجاة من النار ودخول الجنة، وفوق ذلك كله رضا الله تعالى.



دور العبادات العملية في تعزيز الوحدة بين المسلمين

تمثل الوحدة بين المسلمين أهم أهداف الإسلام وقد دعا القرآن الكريم في أكثر من موضع إلى الوحدة، قال تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢]، وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ [المؤمنون: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣]، وأوضح النبي ﷺ أن قوة المؤمنين في وحدتهم، وأن ضعفهم في تفرقهم، قال عليه الصلاة والسلام: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا» وَشَبَّكَ أَصَابِعَهُ. رواه البخاري.

فالوحدة بين المسلمين تقتضي وحدة العبودية لله جل شأنه ووحدة التكليف على العباد، فالذي يؤدي الصلاة في أقصى مغرب الأرض كالذي يؤديها في أقصى مشرق الأرض؛ فالكيفية واحدة والعدد واحد. وكذلك الصيام، يصوم جميع المسلمين - في أي أرض كانوا - شهرًا واحدًا في العام وهو شهر رمضان، وكذلك بقية التكليف التي أمر الله بها.

فلدى المسلمين من عوامل الوحدة الكثير التي تجعل من الوحدة أمراً ضرورياً، ومن هذه العوامل:

أولاً: الايمان بالله وحده بعيداً عن الشرك، وهذا العامل هو الذي يمثل القاسم المشترك بين المسلمين، وعليه يترتب الآتي:

١- أن العبادة في الإسلام خالصة لله وحده لا شريك له، وأنها لم تتلوث بالشرك كما في بعض الديانات التي تُوصف بأنها سماوية، كاليهودية والنصرانية.

٢- وجود مرجعين لكل المسلمين، يتمثلان بالقرآن والسنة، فكلاهما مصدر هداية للمسلم ودستور يحكم كافة العلاقات الإنسانية بين المسلم والمسلم، وبين المسلم وربه، وبين المسلمين والآخرين.

ثانياً: التاريخ المشترك الذي هو بكل تفاصيله يعتبر عاملاً مشتركاً بين المسلمين، فقيام كثير من الدول الإسلامية، كالأموية والعباسية ودولة الأمويين في الأندلس والدولة العثمانية يؤكد على هذه الوحدة ذات المرجعية الإسلامية، فرغم أن العثمانيين لم يكونوا عرباً كالأمويين والعباسيين فإنهم مثلوا الإسلام ودولته خير تمثيل، ولم يعترض أحد من المسلمين كونهم غير عرب، بل خضعت كل الشعوب الإسلامية لحكمهم؛ لأنهم لم يخرجوا عن مرجعية الإسلام: الكتاب والسنة.

وقد قدم المسلمون عبر تاريخهم أرقى الحضارات والكثير من الاستكشافات والاختراعات التي كانت أساساً لقيام الحضارة، فالتاريخ الإسلامي زاخر بالإنجازات الحضارية على كافة الصعد العلمية والثقافية والعمرانية والفنية وفي مجالات الكيمياء، والفيزياء، وغيرها، ولا تزال شواهد تلك الحضارة ماثلة للعيان وبشهادة كثير من المفكرين والمستشرقين الغربيين، مثل المستشرق الألمانية (زيغريد هونكة) وهي مؤلفة كتاب (شمس العرب تسطع على الغرب) ذكرت فيه فضل

الحضارة الإسلامية على الغرب.

وكذلك (واشنطن ايرفنج) الذي كتب عن النبي محمد ﷺ بإنصاف وإعجاب في كتابه (النبي محمد).

ثالثاً: وحدة الأهداف ومنها:

١- الوصول إلى الجنة ورضا الله - عز وجل - وهذا هدف كل مسلم فالمسلم، يعمل بالتكاليف المطلوبة، ويزيد في عمل السُّنن والأعمال الصالحة لتحقيق هذا الهدف، وفي سبيل ذلك يتقبل بنفس مطمئنة الصعاب التي تواجهه دون تدمير أو تأفف، بل يحتسب ذلك عند الله عز وجل.

٢- السعي لنصر الإسلام والعمل على رفع شأنه، ومن ذلك العمل على قيام كيان إسلامي جامع للمسلمين، يؤدي الدور السياسي والاجتماعي والاقتصادي وفقاً لتعاليم الإسلام، وبما يحقق التضامن الإسلامي والتنمية البشرية للمجتمع المسلم، ويحقق العدالة في كافة المجالات السياسية والاجتماعية مما يعزز التكافل الاجتماعي.

٣- الحفاظ على الهوية الإسلامية، وذلك عن طريق تعزيز القوة الإسلامية، بحيث يصبح المسلمون قادرين ومستعدين لمواجهة التحديات التي تمثل تهديداً لوجودهم ووحدتهم.

رابعاً: وسائل تعزيز الوحدة الإسلامية:

١- التعليم: وذلك بإقرار مناهج علمية وعملية تتلاءم وتتطابق مع تعاليم الإسلام، وهذه الوسيلة تمثل حجر الزاوية في البناء الفكري للأجيال المسلمة، خاصة في ظل التحريف والتغيير للمناهج الإسلامية، واستبدالها بمناهج تخالف القيم والمبادئ الإسلامية الأمر الذي أثر سلباً

في أجيال كثيرة من المسلمين، فقد استبسل المستعمرون في تغيير المناهج في البلدان الإسلامية ولا زالوا إلى الآن عبر صنائعهم من العلمانيين والمليدين، الأمر الذي يوجب على المسلمين التصدي لهذه المؤامرات، ووضع مناهج تتطابق مع تعاليم الإسلام وقيمه.

٢- الإعلام: نظراً لما للإعلام من أثر بالغ في المجتمع، فلا بد من الاهتمام بالمواد الإعلامية التي تزداد وتنشر عبر القنوات والصحف والمجلات، بحيث لا يسمح بنشر ما يخالف التعاليم الإسلامية.

٣- وسائل التواصل الاجتماعي: وهذه أخطر ما يهدد القيم الإسلامية كون الرقابة عليها صعبة، خاصة في الدول الإسلامية التي لا تمتلك من الوسائل التكنولوجية ما تستطيع بها السيطرة على ما يعرض فيها، ولا بد من تفريغ علماء في مجالات التكنولوجيا لتولي هذه المهمة.

خامساً: تعزيز التضامن الإسلامي، وذلك عن طريق:

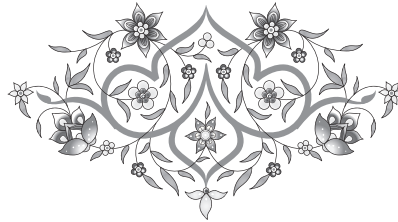
١- قيام مشاريع إسلامية مشتركة تعزز الاقتصاد الإسلامي، وتربط المصالح بين الدول الإسلامية، كقيام البنك الإسلامي الدولي في السبعينيات من القرن الماضي وقد كادت التجربة أن تنجح لولا تدخل الأعداء لإجهاضها، وكان طموح المؤسسين لهذا المشروع كبيراً، ولكن تم تحجيم هذا البنك وتقلص نشاطه.

٢- التعاون السياسي بين المسلمين: لا بد من التنسيق السياسي في مواجهة التحديات، وذلك بقيام كيان سياسي يجمع المسلمين، وقد كانت هنالك خطه كقيام جامعة الشعوب الإسلامية، ولكن سقطت دولة الخلافة أنهى المشروع قبل أن يولد، وقد قامت بعد ذلك بعض الكيانات، مثل: رابطة العالم الإسلامي، ومنظمة المؤتمر الإسلامي، إلا

أن هذه الكيانات لا تملك أي صلاحية في مواجهة الدول التي كونتها وكذلك يمكن القول عن الجامعة العربية، وبالتالي فإن تأثيرها ضئيل جداً إن لم يكن معدوماً، ورغم كل ذلك يمكن أن تكون نواة لمشاريع وحدوية كبيرة، بعد أن يتم تعديل موثيقها وإعادة هيكلتها.

٣- التعاون العسكري: يحظى هذا الجانب بأهمية كبيرة عن بقية الجوانب، فلا بد من وجود تعاون مشترك بين الدول الإسلامية، وذلك عن طريق إنشاء قوة إسلامية مشتركة للدفاع عن مكتسبات الأمة وقت الحاجة، وقد حصلت اتفاقيات دفاع مشترك بين بعض الدول، ولكن هذه الاتفاقيات لم تفعل بسبب التدخلات الخارجية، والتحاق بعض هذه الدول بالتحالفات الدولية، ومن الصعب في ظل هذه الظروف إحياء الدفاع المشترك إلا أن يشاء الله.

٤- تجنب الخلافات والانقسامات والعمل على حل المشكلات بين المسلمين بالطرق السلمية، ويمكن إنشاء محكمة عدل دولية إسلامية ذات صلاحيات واسعة لفض النزاعات بين الدول الإسلامية.



تقرير مبدأ التعايش مع الآخر

حرص الإسلام على حث أتباعه على التعايش مع الآخر، فهو لم ينكر ما توصف بالأديان السماوية التي سبقت، بل أوجب على المسلمين الإيمان بكتب أصحابها ورسولهم امتثالاً لقوله تعالى: ﴿عَٰمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ عَٰمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥]. وهذا يعني:

أولاً: التأكيد على مبدأ التعايش في الإسلام، قال تعالى: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المتحنة: ٨]. وذلك يقتضي الآتي:

- ١- عدم إكراه الناس على الإسلام، وقد أكد القرآن على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩]. وقوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]. وهذا دليل على احترام الإسلام لحق اختيار الإنسان ديانتَه وما يعتقده، بل إن الإسلام أقام حروباً من أجل تحرير إرادة الإنسان وحقه في اختيار ما يعتقده ومعظم الفتوحات الإسلامية إنما كانت لهذا الغرض.
- ٢- حماية حقوق الأفراد على اختلاف دياناتهم داخل الدولة الإسلامية، وهذا يظهر جلياً في تاريخ الإسلام وكيف حمت دولة الإسلام حقوق اليهود والنصارى، فعاشوا بكامل حريتهم في ظل حكم الإسلام.
- ٣- لا يمنع الإسلام من إقامة علاقات مع غير المسلمين مبنية على

مصالح الطرفين، فالمعاملات التجارية كانت شائعة في الدولة الإسلامية بين أطراف تختلف عقائدهم، وذلك لان إبعاد المسلمين عن محيطهم وعن العالم لا يسمح لهم بالدعوة إلى الله - عز وجل - ويكون في هذا ضرر على الدعوة الإسلامية.

ثانيًا: حقوق الأقليات:

١- من حقوق المخالفين في الدين دعوتهم إلى الإسلام بالحكمة والموعظة ومجادلتهم بالتي هي أحسن، قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥].

٢- الإحسان إليهم ومعاملتهم بالعدل ما داموا غير محاربين، وعليه لا يجوز في حال خلاف الذي مع المسلم تفضيل مسلم في المعاملة أو عند الاحتكام إلى القضاء أو الجور عليهم، وقد عاتب الله - عز وجل - المؤمنين في تسع آيات في سورة النساء، وذلك في قصة رجل من الأنصار يقال له طعمة بن أبيرق، سرق درعاً من جاري يقال له قتادة بن النعمان، وكان الدرع في جراب فيه دقيق، فجعل الدقيق ينتشر وحمله إلى داره، ولما رأى دقيقه قام وجعل الدرع عند يهودي كأمانة، ثم لما أتهم أنكر وحلف ما أخذه، ثم اتبعوا أثر الدقيق فانتهبوا إلى منزل يهودي فأخذوه، فقال: دفعها إلي طعمه بن أبيرق، فكان المسلمون مع طعمة ضد اليهودي واتهموه، وقبل أن يصدر حكم الرسول في القضية نزلت الآيات (١٠٥-١١٣) من سورة النساء براءة لليهودي وإدانة المسلم.

وهذه الحادثة تدل على عدالة الإسلام حتى مع المخالفين، وأن المواطنين أمام القانون سواسية.

٣- ومن حقوقهم حمايتهم وتقديم الخدمات لهم مقابل الجزية التي تؤخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم، وما يدفعه الذمي أقل بكثير من الزكاة التي يدفعها المسلم، وفوق ذلك يدفع له عطاء من بيت مال المسلمين إذا أصبح عاجزاً عن الكسب، وقد أعطى عمر بن الخطاب رضي الله عنه يهودياً من بيت مال المسلمين لكبر سنه.

ثالثاً: ضوابط التعاون مع المخالفين غير المحاربين:

١- عدم الموالاة لهم ولكل من كان على غير الإسلام، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ١﴾ [الممتحنة: ١]،
ويترتب على ذلك:

أ- عدم مشاركة أعيادهم الدينية؛ لما فيها من المظاهر الشريكة، ومشاركتهم إقرار لهم على ذلك فالنصارى يحتفلون بعيد ميلاد المسيح عليه السلام باعتباره رباً، وهذا يخالف العقيدة الإسلامية.

ب- عدم التشبه بهم في الزي لقوله ﷺ: «مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ» رواه أبو داود.

ج- لا يجوز تزويج المسلمات من أهل الكتاب؛ لإشراكهم بالله؛ ولأن الزواج منهم يعطي لغير المسلم ولاية على الزوجة المسلمة، وقد تتأثر الزوجة فيسوقها زوجها إلى الكفر، قال تعالى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّىٰ يُؤْمِنَ وَلَا أُمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى التَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ

وَالْمَغْفِرَةَ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾ [البقرة: ٢٢١].

د- عدم تمكينهم من الولايات المهمة، كالقضاء والوزارات وغيرها، ويمكن مشاركتهم في مجال الاستشارات الفنية، كلهندسة والطب.

رابعاً: الكرامة الإنسانية أساس التعايش مع غير المسلمين:

١- قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ [الإسراء: ٧٠]، وهذا التكريم يشمل كل إنسان بغض النظر عن لونه، وعرقه، ولغته، وديانته، فهذا التكريم لا يختص به المسلمون دون غيرهم.

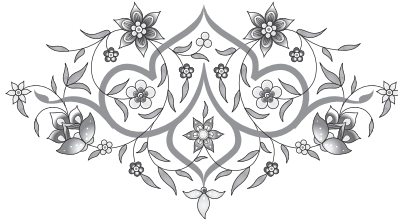
٢- تطبيق مبدأ احترام الإنسان بين البشر، وتذويب الفوارق بينهم، باعتبارهم من أصل واحد، فلا فضل لعربي على عجمي، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى، كما قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

٣- ارتباط المواطنة بالتعايش، وقد أكد الرسول ﷺ على ذلك في وثيقة المدينة التي أبرمها مع اليهود والمشركين والمسلمين، الذين كانوا جميعاً هم مواطنو المدينة التي احتوت على ٤٦ بنداً، كلها تؤكد على التعايش السلمي والتعاون بين أفراد الطوائف المكونة للمجتمع المدني آنذاك.

فالتعايش السلمي هو أساس المواطنة، وكثير من الدساتير اليوم تؤكد على هذا المعنى، وتلزم كافة المواطنين باحترامه، بل وترتب عقوبة على من يخالفه.

٤- الإعلان العالمي لحقوق الإنسان في الإسلام، في ٢١ ذي القعدة ١٤٠١هـ الموافق ١٩ سبتمبر ١٩٨١م، عُقد مؤتمرٌ ضم عدداً من المفكرين والعلماء، وقاموا بصياغة حقوق الإنسان في الإسلام وهذه الحقوق ليست بدعاً من الأمر، وإنما هي تعبير صادق وصياغة عصرية لحقوق الإنسان المستمدة من القرآن الكريم والسنة النبوية، وقد لخصها ذلك الإعلان العالمي في ٢٢ حقاً أهمها: (حق الحياة، حق الحرية، حق المساواة، حق العدالة، حق الفرد في حماية عرضه وسمعته، حق التفكير والاعتقاد والتعبير، حق احترام حقوق الأقليات، حق الحرية الدينية، وغيرها من الحقوق).

وهذا الإعلان لا يختلف كثيراً عن الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الصادر عن الجمعية العامة للأمم المتحدة في ١٠/١٢/١٩٤٨م، ولكن يبقى للإسلام السبق في مسألة حقوق الإنسان وكرامته منذ ١٤ قرناً، ونزول قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].



دور السببية في تحقيق الهداية العملية

قبل الحديث عن السببية في تحقيق الهداية لا بد من تقرير ما يأتي:

أولاً: الله - عز وجل - يفعل ما يريد، ولا اعتراض على ما أراد، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَأُمُّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٧].

ثانياً: أنه جل وعلا: ﴿لَا يُسَلِّ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسَلُونُ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، فمن أراد الله أن يهديه هداية، ومن أراد أن يضله أضله، فالذين اصطفاهم الله من عباده كانت هدايتهم قدراً من الله، ومن هؤلاء الأنبياء ﷺ قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ [فاطر: ٣٢]، ولكن الله - عز وجل - جعل لكل شيء سبباً، والهداية لا تخرج عن هذه القاعدة، فالله - سبحانه وتعالى - لا يظلم أحداً، فقد حرم الظلم على نفسه وجعله بين الناس محرماً، لذا فإنه - سبحانه وتعالى - لا يمكن أن يجبر أحداً على الضلال ثم يحاسبه، لكنه - سبحانه وتعالى - يعلم بعلمه السابق أن فلاناً من الناس من أهل النار وهذا العلم لا يؤثر في اختيار الإنسان، فهو الذي اختار الضلال مثل قوم ثمود، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [فصلت: ١٧]. والهداية التي قدمها الله لهم هي هداية عرض، أي عرض عليهم المنهج القويم فرفضوه وهذا مثل قوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠]. أي طريق الخير وطريق الشر؛ فمشيئة

الإنسان هي اختيار منحه الله له ليختار ويتحمل مسئولية اختياره، وفي الحوار الذي دار بين الله - سبحانه وتعالى - وإبليس اللعين بعد أن رفض السجود لآدم ﷺ، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤] وإبليس عندما سُئِلَ لِمَ لم يسجد؟ علل سبب عصيانه أمر الله للسجود بأنه خير من آدم ﷺ قال تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَّكَ إِلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢]

هنا في هذا الموقف كان إبليس يمتلك الخيار والمشية في أن يسجد أولاً يسجد، فاختار ألا يسجد، ولكن بعد أن طرد من الملكوت الأعلى ولعن بسبب عصيانه جاء بتبرير آخر حيث نسب غوايته إلى الله، قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٣٩]. ولو كانت الغواية من الله لما لعنه وطرده، فعصيانه هو السبب في عقوبة اللعن والطرد، وهروب إبليس من عاقبة اختياره لا ينفي السببية بين فعله ونتيجته، وكذلك الهداية تتعلق باختيار الإنسان لفعله، وفي القرآن آيات كثيرة تدل على أن مشيئة العبد واختياره ترتبط بمشيئة الله - عز وجل - ولكنها مستقلة في اتخاذ الإنسان لقراره هو، قال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]. وكذا قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّنَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٨٠]، وهذا يتناسب مع عدله - سبحانه وتعالى - فليس من المعقول أن يُجبر الله شخصاً على الكفر ولا يترك له مجال الاختيار ثم يُعذبه بعد ذلك، قال تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَن أَضَلَّ اللَّهُ وَمَن يُضِلِلِ اللَّهُ فَهُوَ بِمَآلِهِمْ خاسِرٌ﴾ [النساء: ٨١]

فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ [النساء: ٨٨]، وقوله تعالى: ﴿بِمَا كَسَبُوا﴾ أي أن الله ردهم إلى الكفر والضلال بسبب أعمالهم وهنا تظهر السببية بين الفعل والجزاء، فهم الذين اختاروا الضلال، ثم أن الله - عز وجل - أعطاهم ما اختاروا وزادهم ضللاً، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٥]، فالرجس هنا اختيارهم، والزيادة عقوبة لهم بسبب تكذيبهم بما نزل الله - عز وجل - من الهدى على رسوله ﷺ وكذلك الأمر بالنسبة للمؤمنين واهتدائهم، فالخطوة الأولى تكون منهم، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: ١٧]، فالله - سبحانه وتعالى - يهدي من يشاء أن يهتدي، ويضل من يشاء أن يضل، فهذا اختيار الإنسان، وهو لا شك تحت مشيئة الله وعلمه، لكن الله - عز وجل - أعطى الإنسان مشيئة ليختار بين الهدى والضلال، ولذا كان الحساب والعقاب والجنة والنار، ففي الحديث عن رسول الله ﷺ: «كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى، قيل ومن يأبى يا رسول الله، قال: من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى» رواه البخاري. فعلاقة السببية واضحة بين اختيار الهداية والجزاء المترتب على هذا الاختيار، وكذلك الضلالة.

وعليه فإن الأخذ بأسباب الهداية أمر لازم على المسلم. وعدم الأخذ بالأسباب المادية، كالتكاليف العملية المفروضة أو الأسباب المعنوية كالدعاء، يعني عدم تحقق الهداية.

وخلاصة القول في مسألة الهداية العملية:

١- إن الإيمان بالقلب لا يكفي بدون العمل، خلافاً لما تقوله المرجئة الذين يؤخرون العمل عن الإيمان القلبي، مع أن العمل لازم من لوازم الإيمان.

٢- إن التكليف العملية في الإسلام تميزت باليسر والتخفيف، وباستطاعة كل مؤمن أن يقوم بها، والرخصة جزء من هذا التيسير.

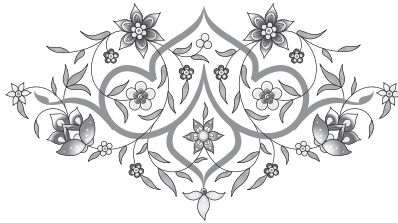
٣- إن التكليف العملية شملت بعمومها كل نواحي الحياة العملية للمسلم، كالعبادات والمعاملات والأخلاق، مما يؤكد أن عظمة الإسلام واهتمامه ليس بالمسلمين فقط، بل بكل البشر وقد أكد القرآن على ذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

٤- إن دخول الجنة ورضا الله - عز وجل - عن الإنسان إنما يكون بتطبيق التعاليم والتكاليف العملية وفقاً لما أراده الله، فالله لا يُعبد إلا بما شرع.

٥- إن التكليف التي كُلف بها المسلم، هي رحمة يعود أجرها عليه، وتكون سبباً في دخول الجنة ورضا الله عنه.

٦- إن الأخذ بأسباب الهداية ضرورة لتحقيق الهدف الأسمى، وهو دخول الجنة.

ونرى أن تُعمم هذه المفاهيم على طلبة العلم، لتصبح جزءاً من مقرراتهم الدراسية، حتى ينشأ الجيل القادم على المفاهيم الصحيحة للإسلام.



أقوم الهدايات التربوية

✽ التأكيد على سنة الاختلاف والتربية على لم الشمل

✽ حسن الظن بالله في نصره للدين.

✽ التربية على الصبر وبيان فضله.

✽ نداءً محبب لتقويم سلوك غير مرغوب.

✽ المداومة على العمل الصالح وثمرته.

✽ التفكير وفضله.

✽ قيام الليل وتقويمه للنفس.

توطئة:

إن القرآن الكريم هو المصدر الذي لا ينضب للحكمة والمعرفة والأدب والتربية والأخلاق، كيف لا وهو كتاب الهداية والتربية والإصلاح والإرشاد الذي أنزله الله على محمد ﷺ ليربي الأمة المسلمة والناس جميعاً، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝﴾ [البقرة: ٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝﴾ [الإسراء: ٩] فلا غنى للمربي ولا للمتربي عن هداياته، فهو يهدف إلى تربية الإنسان تربية شاملة في جميع النواحي العلمية والمعرفية، والأخلاقية، والأدبية، فالقرآن الكريم يربي الإنسان تربية تعزز إيمانه، وتنمي عقله، وتصلق أخلاقه، وتوجه سلوكه نحو الخير، فتربيته خير تربية، وأقوم تربية، وأفضلها، بل وأسلمها.

وللهدايات التربوية القرآنية أهمية كبيرة، فهي: تهدف إلى إبراز منهج تربوي شامل وربطه بالحياة اليومية، إضافة إلى تعزيز القيم والمبادئ والأخلاق، وتطبيقها في الحياة، كما تركز على هداية الإنسان إلى الحق، وبناء مجتمع صالح قوي ومتماسك، وتكوين شخصية مسلمة متكاملة، كما أنها تركز على حماية الأجيال القادمة عبر تحصينهم بالعلم والأخلاق الفاضلة، والتركيز على الحلول للمشاكل التربوية المعاصرة، فتحقق بذلك للفرد والمجتمع المسلم السعادة في الدارين (الدنيا والآخرة).

واللهدايات القرآنية التربوية هي: تلك الأحكام والقيم والمبادئ التي جاء بها القرآن العظيم، لتربية الناس، فتتناول جميع جوانب الحياة من عقيدة، وعبادة، وأخلاق، إلى المعاملات والقوانين.

تعريف الهدايات التربوية في القرآن الكريم:

الهدايات جمع هداية: وهي الدلالة بلطف وهي ضد الضلال، وعرفها ابن عاشور بقوله: «وَالْهَدَايَةُ فِي اصْطِلَاحِ الشَّرْعِ حِينَ تُسَنَدُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى هِيَ الدَّلَالَةُ عَلَى مَا يُرْضِي اللَّهَ مِنْ فِعْلِ الْخَيْرِ وَيُقَابِلُهَا الضَّلَالَةُ وَهِيَ التَّغْيِيرُ» أو هي السلوك السليم للطريق التي توصل الإنسان إلى اتباع شرع ربه، وطلب مغفرته ورضوانه.

فمعنى الهداية بصفة عامة: معرفة الطريق الصحيح الموصل للهدف الذي يسعى المرء لبلوغه، وهدف المسلم في الحياة هو كيف يرضي ربه، ولقد أخبرنا -سبحانه وتعالى- بأنه ليس هناك إلا طريق واحد يؤدي إلى هذا الهدف، ألا وهو: الصراط المستقيم، قال تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأَنْعَام: ١٥٣].

كيفية الهداية التربوية القرآنية:

وتكون الهدايات التربوية في القرآن للإنسان من خلال كشفه وإنارته لكل الجوانب التي تتعلق بحركة الإنسان الخارجية، وكذلك كل ما يوجد بداخله من جوانب غامضة، وأسئلة حائرة، وتصورات خاطئة، فالقرآن يكشف هذه الجوانب، ويوجهها الوجهة الصحيحة، وهو ما يعبر عنه «بُسْبُلُ السَّلام»، قال تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٦] فهدفه الأساسي الوصول بمن يتبعه إلى بر الأمان في كل ما يتعلق به من أمور الدنيا قبل الآخرة، وسنتحدث عن عدد من الهدايات التربوية القرآنية وذلك على النحو الآتي:

التأكيد على سنة الاختلاف والتربية على لم الشمل

أولاً: التأكيد على سنة الاختلاف:

إن الاختلاف من سنن الله الكونية التي قررها على عباده، قال تعالى: ﴿وَمَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: ٦٤]، قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [١٨] إِلَّا مَنْ رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأُمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٨-١١٩]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ عَايَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَالْوَنُكُمُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الروم: ٢٢].

فتبين لنا من خلال هذه النصوص، أن الاختلاف سنة من سننه الكونية، كي يستقيم الوجود وتتوازن حركته وفق ما أراد له خالقه، فلو كان الناس -مثلاً- كلهم أغنياء، فكيف سيعمل الناس، وكيف سيعمرون الأرض، ولو كان الناس كلهم على مهنة واحدة كالمهندسة -مثلاً- لتعطلت الحياة؛ لأن هناك مهناً كثيرة يحتاجها المجتمع منها الطبية، ومنها الفيزيائية، والفلكية، والتجارة، والنجارة، والحداثة، ومنها التعليم بجميع مجالاته، وغيرها من المهن التي تحتاجها كل المجتمعات، فلا يمكن أن يتزن الكون إلا بتحقيقها كلها.

وهذا التفاوت في المهن هو الذي يسخر كل واحد لخدمة الآخر، ولذلك قال الله عز وجل: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحِمْتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢].

قال سيد قطب رحمه الله في تفسيره لهذه الآية: «إن التفاوت في الرزق هو الذي يسخر هذا لذلك، ويسخر ذاك لهذا في دورة الحياة، فالعامل مسخر للمهندس ومسخر لصاحب العمل، والمهندس مسخر للعامل ولصاحب العمل، وصاحب العمل مسخر للمهندس وللعامل على السواء، وكلهم مسخرون في الأرض بهذا التفاوت في المواهب والاستعدادات، والتفاوت في الأعمال والأرزاق».

وهذا التوجيه التربوي القرآني، والذي هو: كما قال الرازي: «إذا كان تفاضل الخلق في درجات منافع الدنيا محسوساً، فتفاضلهم في درجات منافع الآخرة أكبر وأعظم، فإن نسبة التفاضل في درجات الآخرة إلى التفاضل في درجات الدنيا كنسبة الآخرة إلى الدنيا، فإذا كان الإنسان تشد رغبته في طلب فضيلة الدنيا، فأنت تقوى رغبته في طلب فضيلة الآخرة أولى».

يتطلب من المسلمين بشكل عام، ومن الداعية بشكل خاص، الاستفادة منه في أمور عديدة منها الآتي:

١- يراعي الداعية طبيعة الاختلاف بين الناس ومهنتهم، وعليه أن يتفهم هذا الاختلاف؛ لأنه سنة كونية.

٢- أن يفهم الداعية الأساليب الخاصة بكل فئة من الفئات، ويتحرى أفضلها وأحسنها، وأرجاها قبولاً.

٣- أن يفهم الداعية لغة من يدعوهم فهمًا جيدًا، كما يجب عليه أن يعرف عاداتهم وتقاليدهم وواقعهم، فيبني على ذلك معرفته في تقديم الأهم على المهم.

المحاولة في تحديد جنس الداعية لكل فئة؛ حتى يكون من جنس

الفئة أو على الأقل الأقرب المدعوين، أو الأعلّم بتقاليدهم، فيتولى النصح والإرشاد، والقيادة بما يتوافق معهم.

أن يحض المربي أو الداعية الفرد والمجتمع على العلم والتعلم في جميع المجالات التي تنتفع به الأمة المسلمة، والتسابق في دعوته، فهو الذي يجعل الإنسان مميزاً على غيره، فقد قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٨]

وقال تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: ١١].

أن يدعو المسلم إلى تقوية الإيمان بالله، وتقوى الله في السر والعلن، والإكثار من الأعمال الصالحة، فالإيمان والتقوى، والعمل الصالح هما ميزان التفاضل عند الله، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُ﴾ [الحجرات: ١٣].

ثانياً: التربية على لم الشمل وتوضيح آثاره، والتحذير من التنازع وعواقبه:

أن العبد المسلم حين يقرأ القرآن ويستشعر قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦]، فإنه يمثل أمر الله - عز وجل - المؤمنين بلم الشمل، وتوحيد الصف، والابتعاد عن التشتت والتفرق والتمزق، وعن كل ما يؤدي إلى ذلك، ووعدهم بأنه سيكون معهم، وسينصرهم على أعدائهم إن هم فعلوا ذلك.

وقد بين المفسرون أن المراد بقول الله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: فيما يأمركم من القتال، ﴿وَلَا تَنَازَعُوا﴾، يعني: لا تختلفوا فيما

بينكم من القتال، ﴿فَتَفْشَلُوا﴾ يعني: فتجنبوا أمام عدوكم، وقيل: إن معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْزِعُوا فِتْفَشَلُوا﴾ أنه الضعف بعينه قال مجاهد: «الفشل: الضعف عن جهاد عدوه، والانكسار لهم ذلك الفشل».

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾، قال مجاهد: يعني نصرتكم، وذهبت ريحكم يوم أحد حين نازعتموه، وقال الأخفش: يعني دولتكم.

فأخبر الله -عز وجل- عباده المؤمنين أن التنازع هو سبب كل بلية، وهو سبب الانكسار والضعف، وهو سبب للذل أمام الأعداء؛ كي يريهم على الوحدة، ولم الشمل وجمع الكلمة.

بل وأكد على ذلك مراراً وتكراراً فقال تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥]، وفي هذه الآيات يحث الله -عز وجل- عباده المؤمنين على الآتي:

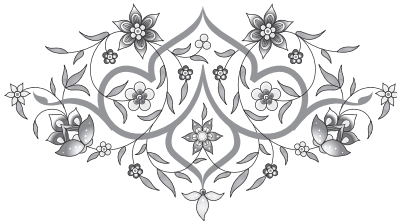
⊙ يأمر الله -عز وجل- عباده المؤمنين ويربيهم على الوحدة، ولم الشمل، ويحثهم عليهما، ويبين لهم الآثار الحميدة للوحدة، التي تولد القوة، والنصر على الأعداء، ويربيهم على الألفة والمحبة فيما بينهم.

⊙ يأمر الله -عز وجل- عباده المؤمنين بترك التفرق والتمزق والشتات، ويبين لهم آثاره وعواقبه، وأن من أهم عواقب التنازع الفشل والهزيمة

أمام الأعداء؛ ليربيهم على الوحدة ولم الشمل وجمع الكلمة ووحدة الصف، فالعدو ضعيف مهزوم أمام وحدتنا وضعيف ومنتصر علينا بتفرقنا وتشتتنا وتمزقنا.

❶ يأمر الله - عز وجل - عباده المؤمنين بحسن التعامل فيما بينهم، وأمرهم بالتعامل باللين والرحمة فيما بينهم، وفي المقابل أمرهم بالتعامل مع أعدائهم بالشدّة والغلظة، لكي يكون لهم مهابة في أعدائهم، فقال تعالى مادحاً أصحاب رسول الله ﷺ والمؤمنين من بعده: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩] وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ١٢٣].

❷ يأمر الله - عز وجل - عباده المؤمنين أن يذكروا نعم الله عليهم الكثيرة التي لا تعد ولا تحصى، ومن هذه النعم: نعمة الوحدة والألفة، بعد أن كانوا شيعاً وفرقاً وأحزاباً، وبعد أن كانوا أعداء فيما بينهم، ومشتتين، ومفرقين وممزقين، وكان يضرب بهم المثل في ذلك، أمرهم بذكر هذه النعمة العظيمة؛ ليربيهم على الحمد والشكر على النعم التي يمتن الله بها عليهم.



حسن الظن بالله في نصره لهذا الدين

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿٧٣﴾ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّ لَهُمْ سُوءٌ وَأَتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿٧٤﴾﴾ [آل عمران: ١٧٣-١٧٤].

يبين الله - عز وجل - في هذه الآية أمرًا لا جدال فيه ولا مرأى، وهو أنه مهما تكالب أعداء الإسلام على الإسلام وأهله المؤمنين الصادقين، ومهما بلغت قوة الأعداء وشوكتهم، ومهما حشدوا من قوات وجهزوا من أسلحة، فإن الغلبة للمؤمنين الصادقين، في حال أخذوا بأسباب القوة ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، وتوكلوا على ربهم، ووثقوا به وبنصره.

وبين فيها أن هذا الدين منتصر بنا إن عملنا بأسبابه وقمنا بها، أو سينصر بغيرنا ممن أخذوا بالأسباب، وأن هذا الدين منتصر لا محالة، بعز عزيز أو بذل ذليل، عزّ يعز الله به الإسلام وأهله، وذُل يذل الله به الشرك وأهله، فقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾﴾ [الصف: ٩].

ويؤكد ربنا - تبارك وتعالى - على نصره لهذا الدين، رغم أنف من يحاربه من الكفار والصليبيين، ويسعى لإطفائه في نصوص أخرى منها، فقال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٨﴾﴾ [الصف: ٨]، وقال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٨﴾﴾ [الصف: ٨].

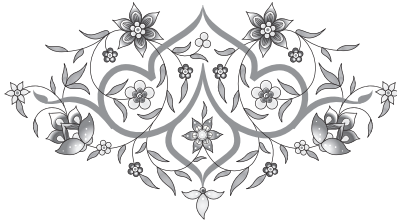
وهذا التوجيه التربوي القرآني يربي المسلمين بشكل عام، والعلماء والدعاة بشكل خاص، ويوجب عليهم الآتي:

⊙ أن يتركوا الصياح والنياح، وأن ينفضوا عنهم غبار العجز والكسل، وأن يبشوا في الأمة روح الأمل والثقة بوعد الله، وأن يعيدوا زمام الأمور إلى ما كانت عليه، فيأكلوا مما يزرعون، ويتسلحوا بما يصنعون، ويعملوا بأسباب القوة، ويثقوا بوعد الله الصادق لنصرهم.

⊙ ألا يلتفتوا إلى المثبطين، والمخذلين، والمندسين، والمرجفين، والمنافقين، الذين يضخمون من قوة العدو، ومن تقدمه في العتاد العسكري والتكنولوجي، والتقدم الاستخباراتي، وغيرها من التطورات، بل يعدوا العدة ما استطاعوا ويثقوا بنصر الله لهم.

⊙ ألا يلتفتوا إلى كثرة عدوهم، وألا يلتفتوا إلى اتحاد أعدائهم عليهم، وتجمع القوى العظمى ضدهم؛ لأن أقوى الأقوياء معهم، ومن بيده ملكوت السماوات والأرض في صفهم، ويحميهم من كيد الأعداء قال تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْكُوا اللَّهَ كَمِ مِّنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةٌ كَثِيرَةٌ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّادِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

⊙ أن يتوحدوا جميعاً تحت راية لا إله إلا الله محمد رسول الله، وأن يتبعوا هذا الدين الذي دستوره القرآن، وقائده محمد ﷺ ويسترشدوا به، ويحتكموا إليه، ويتبعوا ما جاء به.



التربية على الصبر وبيان فضله

الصَّبْرُ: هو الإمساك في ضيق، والصَّبْرُ: حبس النفس على ما يقتضيه العقل والشرع، أو عما يقتضيان حبسها عنه.

وقد أمر الله تعالى الإنسان بالصبر وحثه عليه، وبين أن بالصبر ينال به العبد الخير والأجر الكبير، وينال رضى ربه عليه، وينال البشارة من رب العالمين، وبين أن الصبر أول ما ربي الله عليه الأنبياء والمرسلين، وأن من أفضل صفاتهم أنهم من أهل الصبر، وجعلهم مضرِباً للأمثال في الصبر فقال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

ثم أمر المؤمنين بالتحلي بالصبر والمبالغة فيه، كي يكون سبباً لفلاحهم، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

قال الشيخ السعدي رحمه الله عند تفسيره لهذه الآية: «ثم حض المؤمنين على ما يوصلهم إلى الفلاح وهو: الفوز والسعادة والنجاح، وأن الطريق الموصل إلى ذلك لزوم الصبر، الذي هو حبس النفس على ما تكرهه، من ترك المعاصي، ومن الصبر على المصائب، وامتنال الأوامر الثقيلة على النفوس، فأمرهم بالصبر على جميع ذلك، والمصابرة أي الملازمة والاستمرار على ذلك، على الدوام، ومقاومة الأعداء في جميع الأحوال.

والمرابطة: وهي لزوم المحل الذي يخاف من وصول العدو منه، وأن يراقبوا أعداءهم، ويمنعوهم من الوصول إلى مقاصدهم، لعلهم يفلحون: يفوزون بالمحسوب الديني والدنيوي والأخروي، وينجون من المكروه كذلك.

فَعُلِمَ مِنْ هَذَا: أَنَّهُ لَا سَبِيلَ إِلَى الْفَلَاحِ بِدُونِ الصَّبْرِ وَالْمَصَابِرَةِ وَالْمِرَابِطَةِ الْمَذْكُورَاتِ، فَلَمْ يَفْلَحْ مَنْ أَفْلَحَ إِلَّا بِهَا، وَلَمْ يَفْتَ أَحَدًا الْفَلَاحُ إِلَّا بِالْإِخْلَالِ بِهَا أَوْ بِبَعْضِهَا.

ولكي يربينا ربنا -تبارك وتعالى- على هذا الخلق العظيم، ويرغبنا فيه، والتمسك به، فقد خص الله -تبارك وتعالى- الصابرين بمجملته من الخصائص والمزايا، ومن أهم هذا الخصائص الآتي:

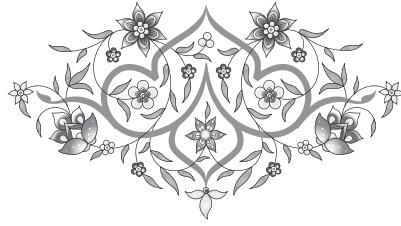
◎ البشارة العظيمة من الله للصابرين قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥].

◎ الحب من الله تعالى للصابرين: وإذا أحب الله عبدًا قربه، وإذا قربه أرضاه، وأي نعيم أعظم من حب الله لعبده، قال تعالى: ﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

◎ الرضا عنهم من الله تعالى: فعن محمود بن لبيد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أحب الله قوماً ابتلاهم، فمن صبر فله الصبر، ومن جزع فله الجزع» أخرجه أحمد، وعن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن صهيب، قال: قال ﷺ: «عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر، فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيراً له» رواه مسلم.

◎ الوعد من الله: كما أن الصابرين موعودون بمعية الله -عز وجل- كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.

● البشارات الأخرى: فالصابرون مبشرون بالخير، ومبشرون بالرفعة في الدرجات العلى من الجنة، والنعيم المقيم فيها، ومبشرون بالرضا والقرب من الله تعالى، كما أنهم مبشرون بمغفرة الذنوب والزلات، ومبشرون بمرافقة الأنبياء والصالحين، وغيرها من البشارات التي لا يكفي المقام لسردها، كل ذلك من أجل التربية على الصبر والمصابرة.



نداءٌ محب لتقويم سلوك غير مرغوب

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝﴾ [الحجرات: ١]، إلى قوله: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ﴾.

يرينا القرآن الكريم ويعلمنا كمسلمين بشكل عام، ودعاة بشكل خاص، كيف نكون راقين بدعوتنا ونصحنا ومحاولتنا لتغيير السلوكيات الخاطئة، وتصويبنا للانحرافات، وذلك بمناداة الناس بأحب الأسماء إليهم، وبالتخاطب معهم باللين والرفق الممزوج بالحكمة والموعظة الحسنة، كما علمنا أيضًا: أن نجتنب أساليب السخرية من الناس، ونجتنب التنازب بالألقاب، ونجتنب الغيبة والنميمة، ونجتنب التجسس والتحسس، وأن ندع الخلق للخالق.

فعلمنا الله تعالى كيف نخاطب الناس، وبأي أسلوب نخاطبهم، فأعطانا نموذجًا حيًا حين خاطب الله تعالى الصحابة في القرآن الكريم بأسلوب راقٍ، وأسلوب هين لين، بل ومحِب للنفس، فناداهم بأحب الأشياء إليهم ألا وهو الإيمان، وذلك لأن الهدف هو الإصلاح والتقويم، والتربية والتعليم، وليس الإهانة والتوبيخ والتأنيب والتأثيم، وإنما لن نسع أبدًا الناس بأموالنا، أو بنفوذنا، ولكننا نسعهم بأخلاقنا.

ثم أمرهم بعد أن خاطبهم بخطاب راق ومعاملة حسنة بترك السلوكيات الخاطئة ووجههم وأرشدهم إلى ما هو خير لهم في الدنيا والآخرة.

وهذه التوجيهات التربوية القرآنية تربي المسلمين بشكل عام، والدعاة بشكل خاص على جملة من القيم والمبادئ ومن أهمها الآتي:

◉ أنها تربي المسلمين بشكل عام، والدعاة بشكل خاص أن يستحضروا المنهج التربوي الرباني في دعوتهم ومخاطبتهم للناس، حيث أمرهم الله باستعمال: الحكمة والموعظة الحسنة، عند النصح والإرشاد.

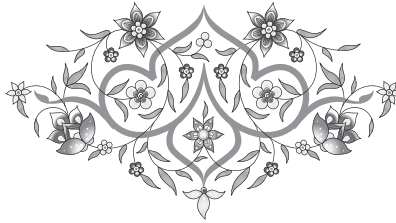
◉ أنها تربي المسلمين وتنهاهم عن التقديم بين يدي الله ورسوله، بأي فعل أو قول، بل الواجب عليهم السمع والطاعة لأوامر الله تعالى، وأوامر رسوله ﷺ فلا رأي ولا نقاش ولا جدال بعد أوامر الله ورسوله، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦]. وقال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]. ويكون ذلك بالتمسك بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ وهذا ما اتفق عليه السلف والخلف.

◉ أنها تربي عباده المؤمنين على التقوى والخشية والخوف منه، وذكرهم بأنه يسمع ويعلم ما في صدورهم، تأكيداً على وجوب الالتزام بأوامره واجتناب نواهيه.

◉ أنها تربي المسلمين وتنهاهم عن رفع صوتهم عند الحق، وذلك لأنه محبط للأعمال، فكما أن رفع الصوت عند رسول الله ﷺ محبط للأعمال، فإن من يرفع صوته فوق صوت الحق يحبط عمله، وكما يجب طاعة الله ورسوله، فإنه يجب احترام وتقدير العلماء، واحترام مكانتهم في قيادة الأمة، ويجب اتباعهم دون غيرهم من الطواغيت، فلكل شخص منزله ولا يحق لأحد أن يتخطاها، فالأب له مكانته ومنزله، والمعلم له مكانته ومنزله، والعالم له مكانته ومنزله، ولكل قدره ومنزله،

وقدر الرسول ﷺ فوق الجميع.

⑤ أنها تربي عباده المؤمنين على وجوب الثبوت من خبر الفاسق، وعدم التعجل في الأخذ به تصديقاً أو تكذيباً، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦] أنها تربي عباده المؤمنين على حب الإصلاح بين المتخاصمين، والعدل في حل الإشكال، كما رباهم على الوقوف إلى جانب المظلوم، وإلى جانب صاحب الحق، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩] أنها تربي وتنهى عباده المؤمنين عن السخرية، فلا يدري الساخر أن الذي يسخر منه يكون عند الله خيراً منه، وأعلى منزلة منه، كما نهاهم عن اللمز، والتنابز بالألقاب، ونهاهم عن إساءة الظن، وعن التجسس وعن الغيبة والنميمة، ثم بين ربنا -تبارك وتعالى- أن البشر كلهم مخلوقون من ذكر وأنثى، وأن أباهم واحد وهو آدم ﷺ، وأمهم واحدة وهي حوى، فلا فرق بينهم ولا تفاضل إلا بالتقوى.



المدامومة على العمل الصالح وثمرته

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦] وقال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧] والعمل الصالح هو أي عمل أو فعل أو قول يرضاه الله - سبحانه وتعالى - من عباده المؤمنين، والذي يقوم به العبد تقرباً إلى الله تعالى، ويكون خالصاً لله، وصواباً على منهاج رسول الله ﷺ.

فقد بين الله تعالى جزاء الذين آمنوا بالله وبرسوله ﷺ وعملوا الصالحات وداوموا عليها، في كثير من الآيات القرآنية.

فبين أن لهم جنات المأوى التي فيها رضوان الله ولذة النظر إلى وجهه الكريم، والمساكن والدور والغرف العالية، وذلك ثواباً وجزاءً وتكريماً لهم على أعمالهم الحسنة، وأفعالهم الطيبة التي فعلوها وداوموا على فعلها في الدنيا؛ كي يستمر المؤمنون بعمل الصالحات، والمدامومة على الطاعات.

قال السعدي رحمه الله في تفسيره للآية السابقة: «أما جزاؤهم، فقال: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ﴾ يدخل فيه جميع نفوس الخلق، لكونها نكرة في سياق النفي أي: فلا يعلم أحد ﴿مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ من الخير الكثير، والنعيم الغزير، والفرح والسرور، واللذة والحبور، كما قال تعالى على لسان رسوله: «أعددت لعبادي الصالحين، ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر» رواه البخاري فكما صلوا في الليل، ودعوا، وأخفوا العمل، جازاهم من جنس عملهم، فأخفى أجرهم، ولهذا قال: ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

وقال الإمام الشوكاني رحمته الله في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [التكوير: ١٧] في سياق التَّفْهِيمِ تُفِيدُ الْعُمُومَ، أَي: لَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مِّنَ النَّفُوسِ أَيُّ نَفْسٍ كَانَتْ مَا أَخْفَاهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لِأَوْلِيكَ الَّذِينَ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُمْ بِمَا تَقَرَّرَ بِهِ أَعْيُنُهُمْ،... ثُمَّ بَيَّنَّ سُبْحَانَهُ أَنَّ ذَلِكَ بِسَبَبِ أَعْمَالِهِمُ الصَّالِحَةِ فَقَالَ: ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أَي: لِأَجْلِ الْجَزَاءِ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَهُ فِي الدُّنْيَا، أَوْ جُوزُوا جَزَاءً بِذَلِكَ.

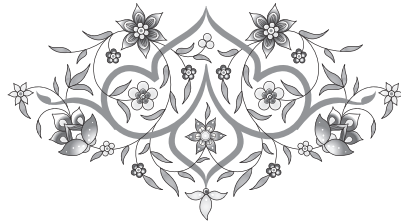
وقد ورد تفسير الرسول صلوات الله عليه لهذه الآية في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صلوات الله عليه يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: «أَعَدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ، مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبٍ بَشَرٍ دُخْرًا بَلَّهَ، مَا أُظْلِعْتُمْ عَلَيْهِ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧] رواه البخاري.

كل ذلك وأكثر أخبر به ربنا -تبارك وتعالى- أنه أعده لعباده المؤمنين، وذلك ليربي عبادة المؤمنين على أمور كثيرة ومنها الآتي:

① على زرع المودة في قلوب المؤمنين، وحب الصالحين: قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦] على المسارعة إلى زرع الخير، والمداومة عليه، والإكثار منه في الدنيا؛ ليحصدوا ما زرعه يوم القيامة، ويكون جزاءهم من جنس عملهم.

② على مجاهدة النفس على الأعمال الصالحة، وإغرائها بلذة القيام بين يدي الله، ولذة العمل من أجل الله في جميع أعمال الخير، إضافة إلى ما يتبع ذلك من سعادة وسرور في القلب عند التقرب إلى الله تعالى بالطاعات، ونتائجها في الآخرة.

● على عدم المساوات بين المؤمن والكافر أو الفاسق، سواء عند الله، أو عند الناس، فليس من حكم الله تعالى أن يساوي المؤمن المستقيم الذي يتقرب إلى الله بعمل الصالحات والإكثار منها والمداومة عليها، مع الفاسق والمنحرف الذي يسرف على نفسه بالسيئات والمعاصي في الجزاء، لا في عدله، ولا في الميزان، ولا يمكن تخيل ذلك، فلا مساواة بين المؤمن والكافر والمطيع والفاسق والبار والفاجر، فلزم على المسلمين أن لا يساؤوا بينهم أيضًا.



التفكر وفضله

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ١٥٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ١٥١﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن أَنْصَارٍ ١٥٢﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩٢].

التفكر من أفضل العبادات القلبية وأنفعها له، وهو من أعظم النعم التي أنعم الله تعالى بها على العباد؛ كي يعرفوه - سبحانه وتعالى - بهذه النعمة، فالتفكر بمعناه الواسع ودوائره المتعددة، قد ورد في عدة مواضع في القرآن الكريم، كالتفكر في الكون والنفس والتفكر في الإبل، كيف خلقت؟ وفي السماء كيف رفعت؟ وفي الأرض كيف سطحت؟ فبين لنا ربنا - تبارك وتعالى - فضل التفكير والتدبر وأهميته.

وأمر الله عباده بالتفكر والتدبر في آياته الكونية، وآياته المقروءة في كتابه الكريم، فكثيراً ما يصفهم بأولي العقول والألباب، فخص بهذه النعمة الإنسان دون غيره من المخلوقات، وذلك لأنه من خلال الفكر والعقل يميز الإنسان بين الحق والباطل والنافع والضار.

ولذلك فقد ذم الله تعالى من عطلوا هذه النعمة ولم يشغلوها بالاستدلال للوصول بها إلى معرفة خالقهم ورازقهم فقال - سبحانه وتعالى -: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ٣٣﴾ [الأنفال: ٢٢] وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ٤٦﴾ [الحج: ٤٦].

قال القشيري رحمه الله عند تفسيره لهذه الآية: «التفكر نعمة كل طالب، وثمرته الوصال بشرط العلم، فإذا سلم الذكر عن الشوائب ورد صاحبه على مناهل التحقيق، وإذا حصل الشهود والحضور سما صاحبه عن الفكر إلى حدود الذكر، فالذكر سرمد، ثم فكر الزاهدين في فناء الدنيا وقلة وفائها لطلابها فيزدادوا بالفكرة زهدًا فيها، وفكر العابدين في جميل الثواب فيزدادوا نشاطًا عليه ورغبة فيه، وفكر العارفين في الآلاء والنعم فيزدادوا محبة للحق سبحانه».

وقال الرازي في تفسيره لهذه الآية: «اعلم أنه تعالى لما ذكر دلائل الإلهية والقدرة والحكمة وهو ما يتصل بتقرير الربوبية ذكر بعدها ما يتصل بالعبودية، وأصناف العبودية ثلاثة أقسام: التصديق بالقلب، والإقرار باللسان، والعمل بالجوارح، فقوله تعالى: ﴿يَذْكُرُونَ اللَّهَ﴾ إشارة إلى عبودية اللسان، وقوله: ﴿قِيَمًا وَقُعودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ إشارة إلى عبودية الجوارح والأعضاء، وقوله: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ إشارة إلى عبودية القلب والفكر والروح، والإنسان ليس إلا هذا المجموع.

فإذا كان اللسان مستغرقًا في الذكر، والأركان في الشكر، والجنان في الفكر، كان هذا العبد مستغرقًا بجميع أجزائه في العبودية، فالآية الأولى دالة على كمال الربوبية، وهذه الآية دالة على كمال العبودية».

ولقد بين رسول الله ﷺ أهمية الفكر والتدبر، كما في حديث عطاء قال: دَخَلْتُ أَنَا وَعُبَيْدُ بْنُ عُمَيْرٍ عَلَى عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فَقَالَتْ لِعُبَيْدِ بْنِ عُمَيْرٍ: قَدْ آتَى لَكَ أَنْ تَزُورَنَا؟ فَقَالَ: أَقُولُ يَا أُمّاهُ كَمَا قَالَ الْأَوَّلُ: زُرْ غَيًّا تَزِدُّ حُبًّا، فَقَالَتْ: دَعُونَا مِنْ رَطَانَتِكُمْ هَذِهِ، فَقَالَ ابْنُ عُمَيْرٍ: أَخْبَرِنَا بِأَعْجَبِ شَيْءٍ رَأَيْتِهِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَسَكَتَتْ ثُمَّ قَالَتْ: لَمَّا

كَانَ لَيْلَةً مِنَ اللَّيَالِي قَالَ: « يَا عَائِشَةُ ذَرِينِي أَتَعْبُدُ اللَّيْلَةَ لِرَبِّي » فَقُلْتُ:
وَاللَّهِ إِنِّي لأُحِبُّ قُرْبَكَ ، وَأُحِبُّ مَا سَرَّكَ قَالَتْ: « فَقَامَ فَتَطَهَّرَ، ثُمَّ قَامَ
يُصَلِّي، فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى بَلَ حِجْرُهُ ثُمَّ بَكَى، فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى
بَلَ حِجَّتِهِ، ثُمَّ بَكَى فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى بَلَ الْأَرْضَ » فَجَاءَ بِلَالٌ يُؤَدُّهُ
بِالصَّلَاةِ، فَلَمَّا رَأَاهُ يَبْكِي قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ لِمَ تَبْكِي وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ
مَا تَقَدَّمَ وَمَا تَأَخَّرَ؟ قَالَ: « أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا؟ » لَقَدْ نَزَلَتْ عَلَيَّ
اللَّيْلَةَ آيَةٌ، وَيْلٌ لِمَنْ قَرَأَهَا وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠]

أخرجه ابن حبان.

ثم بين رسول الله ﷺ كيفية التفكير والتدبر، وبين في أي شيء يكون
فقال: « تفكروا في خلق الله - عز وجل - ولا تتفكروا في الله » أخرجه الطبراني.

أي أن التفكير يكون فيما أمرنا الله - عز وجل - بالتفكير فيه، كال تفكر
في الكون وما فيه من آيات، والتفكر في النفس، والتفكر في المخلوقات
التي أمرنا بالتفكير فيها، كال تفكر في الإبل كيف خلقت، وفي السماء
كيف رفعت، وفي الأرض كيف سطحت، وغيرها من المخلوقات، ونهانا
أن نتفكر في ذات الله؛ لأنه جل وعلا لا تدركه الأبصار، وليس كمثله
شيء وهو السميع البصير.

وهذا التفكير الذي دعانا الله - عز وجل - إليه في كتابه الكريم له
أهداف، وذلك لأن الله - عز وجل - عندما يأمر بالتفكير فإنه يطلب
في الوقت نفسه أن يكون التفكير منتجاً وله ثمرته، ويوصل إلى نتائج
وأهداف نبيلة، لا أن يكون التفكير عشوائياً، أو عبثاً، بل يجب أن
يكون له ثمراته، وأهدافه، ويربيهم ويعلمهم، ومن أهم هذه الأهداف
الآتي:

⊙ الكشف عن السنن الإلهية بجميع أنواعها في بناء الكون بهدف تسخيرها للإنسان للقيام بواجب الاستخلاف.

⊙ الكشف عن سنن الله تعالى في حياة البشر والمجتمعات، وقيام الحضارات.

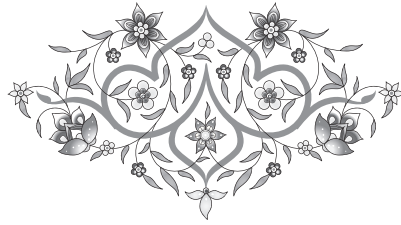
⊙ التعرف على طبيعة النفس الإنسانية وأطوارها، وخصائصها.

⊙ التثبت من صدق الأفكار والمبادئ والمعتقدات، فيشرح الصدر بمعرفتها والتثبت منها.

⊙ الخوف من الله - عز وجل - والخشية منه وطلب مرضاته.

⊙ إيضاح وتبيين كرامة الإنسان بهذا العقل الذي ميزه الله به، وهو دليل على كمال عقله، وأن للتفكر قيمة عقلية كبرى تؤدي إلى يقظة الأفراد ونهضة الأمم.

⊙ إقامة الحجة على الكفرة من الأمم السابقة، ومن أمة محمد ﷺ.



قيام الليل وتقويمه للنفس

قال تعالى: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [السجدة: ١٦].

إن قيام الليل فيه خير كبير، وفضل عظيم للمؤمن في أي وقت من أوقات الليل، إلا أن الثلث الأخير من الليل هو أفضل الأوقات وأشرفها على الإطلاق، وذلك لأن الرب جل وعلا ولذلك فإن الصالحين إذا دعته أنفسهم إلى النوم، دعوها إلى قيام الليل، وربوها عليه، وذاقوا لذة قيام الليل والمناجاة للملك الجليل.

يقول السعدي رحمه الله في تفسيره لقوله تعالى: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ «أي: ترتفع جنوبهم، وتنزع عن مضاجعها اللذيذة، إلى ما هو ألد عندهم منه وأحب إليهم، وهو الصلاة في الليل، ومناجاة الله تعالى.

ولهذا قال: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ أي: في جلب مصالحهم الدينية والدنيوية، ودفع مضارهما، ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أي: جامعين بين الوصفين، خوفًا أن ترد أعمالهم، وطمعًا في قبولها، خوفًا من عذاب الله، وطمعًا في ثوابه.

وقال الواحدي رحمه الله: «أي: ترتفع جنوبهم، الموضع الذي يضطجع عليه، يعني الفرش، وهم المتهمجدون بالليل الذين يقومون للصلاة عن الفراش».

وقال الإسماعيلي رحمه الله في (روح البيان) عند تفسير قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ﴾. «هذا استئناف لبيان بقية محاسن المؤمنين، والتجافي هو البعد والتجنب والتنحي عن الشيء، والجنوب جمع جنب وهو شق

الإنسان وغيره. والمعنى ترتفع وتتنحى اضلاعهم عَنِ الْمَضَاجِعِ أي: الفرش ومواضع النوم؛ إشارة إلى أن حال أهل اليقظة والكشف ليس كحال أهل الغفلة والحجاب، فانهم لكمال حرصهم على المناجاة ترتفع جنوبهم عن المضاجع حين ناموا بغير اختيارهم كأن الأرض ألقتهم من نفسها، وأما أهل الغفلة فيتلاصقون بالأرض لا يحركهم محرك.

ومعنى قوله تعالى: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ حال من ضمير جنوبهم، أي: داعين له تعالى على الاستمرار خَوْفًا من سخطه وعذابه وعدم قبول عبادتهم، وَظَمَعًا في رحمته، وهذه الآية نزلت في شأن المتهجدين فان أفضل الصيام بعد شهر رمضان صيام شهر الله المحرم وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل. - كما قال رسول الله ﷺ -.

ولأن قيام الليل له فضل عظيم في تربية وتزكية النفوس، فقد أمر الله - عز وجل - نبيه محمدًا ﷺ بأن يجعل له وقتًا من الليل يتجبد به؛ كي يبعثه الله المقام المحمود، فقال تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩].

بل إن قيام الليل كان فرضًا على النبي ﷺ وهذا من خصوصياته، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿يَنَاقِيهَا الْمُرْمَلُ﴾ ❶ قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ❷ نِصْفَهُ ❸ أَوْ أَنْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ❹ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ❺ [المزمل: ١-٤]، وأما بالنسبة لأئمة فهو مستحب في حقهم وليس واجبًا عليهم.

وقد مدح الله أهل قيام الليل، الذين يجاهدون أنفسهم ويربونها على قيام الليل، وبين أنهم خير من الذين لا يقومون الليل ولا يهتمون به، فقال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَلْبُكَ عِندَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ ❶ [الزمر: ٩] قال الزحيلي في تفسيره

لهذه الآية: «ذكر الله تعالى أحوال المؤمنين القانتين الذين لا يعتمدون دائماً إلا على ربهم، فقال: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَنِتٌ ءَانَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ أي: أذكلك الكافر أحسن حالاً ومالاً، أم المؤمن بالله، الذي هو مطيع خاشع يصلي لله في ساعات الليل، وخشوعه مستمر حال سجوده وحال قيامه، يخاف الآخرة، ويرجو رحمة ربه، فيجمع بين الخوف والرجاء، وتلك هي العبادة الكاملة، التي يفوز بها صاحبها؟! الجواب واضح.

وهذه الآية تدل دلالة واضحة على فضل قيام الليل، وأنه أرجح من قيام النهار، كما أنها تهدف وترمو إلى هدايات تربية للمؤمنين، ومن أهمها الآتي:

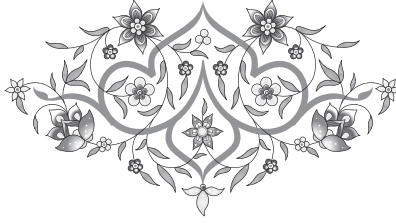
⊙ تربية المسلم على الخوف من الله ومراقبته، والطمع في رحمته وفضله، ولذلك رغب الله عز وجل المؤمنين في منح ربانية لمن حرص على التقرب منه تبارك وتعالى.

⊙ تربية المسلم على مجاهدة نفسه على قيام الليل، والبذل في سبيل الله، وهذا من أعظم ما يجاهد به العبد نفسه في سبيل مرضاة ربه، إذ يصعب ذلك على النفس، إلا على من عرف جزاء ذلك عند الله تعالى.

⊙ تربية المسلم على السعي والمنافسة والمسابقة في اكتساب صفات المؤمنين، والتي من أهمها: أنهم تتجافى جنوبهم عن المضاجع ويهجرون راحتهم، ويتسابقون في عبادة ربهم، ويدعون في ليالهم ونهارهم، خوفاً من عذابه، وطمعاً في ثوابه.

⊙ تربية المسلم على أن ما هو عند الله خير وأبقى، وله جزاء عظيم، ومن عرف ما عند الله، هان عليه ما عنده.

أنها بينت للمسلم سبيل التقرب إلى الله وطرقه ووسائله، وأن التقرب إلى الله لا يحتاج إلى واسطة، إنما يحتاج إلى السجود بين يديه جل وعلا في تذلل وخشوع.





أقوم الهدايات التعليمية

✿ قابلية التعلم مؤهل الاستخلاف وكرامة الله للإنسان.

✿ درس عملي عن خطورة الخطأ وكيفية التعلم منه

✿ التعليم بالتجربة والتطبيق.

✿ طلب الاستزادة من العلم واليقين.

✿ تيسير الله على عباده وطلب الاتجاه إلى طاعته.

دون تشديد في تفاصيل الطاعة.

✿ التعليم بالحوار بالحجج العقلية.

✿ العلم والتعليم المحور الأول للرسالة القرآنية.

قابلية التعلم مؤهل الاستخلاف وكرامة الله للإنسان

القابلية الكبيرة لدى الإنسان للتعلم هي ميزته الأبرز ومؤهل الاستخلاف الأعظم، يتجلى هذا الأمر في عرض خالقه له في أول مشهد تعريفى بهذا المخلوق الجديد، لقد كان مشهداً عُرضت فيه مؤهلاته لهذا الاستخلاف، وعليه فهي القيمة الأبرز التي كرمه الله بها على سائر مخلوقاته.

هكذا قص الله علينا هذا المشهد في كتابه العزيز قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰآدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [البقرة: ٣٠-٣٤] عرضت ملائكة الرحمن مؤهلها وقد ظنت أنه كافٍ ليستحق به حامله أن يخلف الخليقة التي سبقت فسفكت وأفسدت وتجاوزت الحد في ذلك فأبعدت.

يقول الإمام أبو جعفر الزمخشري رحمه الله: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ تعجب من أن يستخلف مكان أهل الطاعة أهل المعصية وهو الحكيم الذي لا يفعل إلا الخير، ولا يريد إلا الخير، فإن قلت: من أين عرفوا ذلك حتى تعجبوا منه وإنما هو غيب؟ قلت: عرفوه بإخبار من الله أو من جهة اللوح، أو ثبت في علمهم أن الملائكة وحدهم هم الخلق المعصومون،

وكل خلق سواهم ليسوا على صفتهم: أو قاسوا أحد الثقلين على الآخر حيث أسكنوا الأرض فأفسدوا فيها قبل سكنى الملائكة، والواو في وَنَحْنُ للحال، كما تقول: أتحسن إلى فلان وأنا أحق منه بالإحسان».

الإنسان في القرآن الكريم مخلوق خصه الله - سبحانه وتعالى - بمزايا متعددة تميزه عن غيره من الكائنات، ولعل أبرز هذه المزايا هي القابلية الكبيرة للتعلم والاستفادة من العلم في بناء قدرات إضافية إلى قدراته المحدودة المحكومة بصغر حجمه، هذه القابلية تجعل الإنسان قادرًا على التفاعل مع العالم من حوله بشكلٍ أوسع، واكتساب المعرفة، والقيام بمهمة الاستخلاف في الأرض، في أول مشهد للتعريف بالإنسان بعد خلقه، يأتي الحديث عن تعلمه، إذ قال الله - سبحانه وتعالى -: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ ورد في تفسيرها: «أي علمه صفات الأشياء ونُوعَتَهَا وَخَوَاصَّهَا» وإظهار هذا الأمر والإشارة إليه في أول مشهدٍ للتعريف بهذا المخلوق وقدراته يُظهر أن العلم هو أبرز المؤهلات التي كرمه الله بها على سائر المخلوقات، وسينعكس هذا في قدرة الإنسان على التعلم والتطور بما يساهم في رفع شأنه وتحقيق خلافته في الأرض، وهنا أشير إلى مجمل أقوال المفسرين في معنى خلافة الإنسان ويمكن جمعها في ثلاثة أقوال: القول الأول: خليفة أي استخلفه الله ليعبده بعمارة الأرض وإصلاحها وإقامة أحكامه فيها، قال تعالى: ﴿يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص: ٢٦]، والقول الثاني: أنه خليفة عن مخلوقات سابقة كانت في هذه الأرض قبله، والقول الثالث: أن البشر يخلُف بعضهم بعضًا (جيلاً بعد جيل).

أولاً: القابلية للتعلم تعبير عن التكريم الإلهي للإنسان:
١- العلم والتعلم مظهر التكريم الإلهي:

الإنسان هو الكائن الذي تم تفضيله على جميع المخلوقات بقدرات عقلية من خلالها يستطيع أن يتعلم ويُنمي قدراته، لقد منح الله القدرة على تعلم الأسماء كلها، ما يعني قدرته على الفهم والإدراك، واكتساب العلم والمعرفة، وهذه الميزة هي التي جعلته مؤهلاً لتحمل مسؤولية الاستخلاف في الأرض.

عندما علم الله آدم ﷺ الأسماء، لم يكن ذلك مجرد علم نظري بل كان معرفة شاملة تعرف الإنسان على مفردات هذا الكون وخصائصه.

هذه المعرفة هي الأساس الذي بنيت عليه كافة العلوم التي تطورت على مر العصور، وما يزال الإنسان يسعى لتوسيع دائرة معرفته، وبمقارنة بسيطة بين الإنسان وغيره من المخلوقات نجد مثلاً أن الأسد منذ خلق الله فصيلته يصطاد ويمارس حياته بنفس الطريقة لن ترى أسداً يستخدم الرمح ولا السهم ولا البندقية في النيل من طرائده، إنه قد توقف عند العلم الفطري الذي زوده به خالقه، في حين نجد الإنسان في تطوير مستمر لوسائله في الحياة، ولوقارنت وضع هاتفك اليوم بهاتفك قبل ثلاثين عاماً لرأيت مقدار القفزات العلمية التي يقدر هذا المخلوق أن يحققها.

٢- العلاقة بين العلم والاستخلاف:

الاستخلاف في الأرض كما ورد في الآيات: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ هو تكليف عظيم من الله للإنسان، ويتطلب هذا التكليف أن يكون الإنسان مؤهلاً بما يكفي من العلم والمعرفة، وهذا العلم لا يأتي إلا عبر التعلم المستمر والبحث في الأرض والسعي لاكتشاف

قوانين مادتها وأسرارها.

القابلية للتعلم تتيح للإنسان اكتساب المعارف التي تمكّنه من التفاعل مع البيئة من حوله، فقد شاء الله ابتداءً أن يجعل خلافته في الأرض لا في الجنة، وإذن فكل اكتشاف علمي أو ابتكار تقني ما هو إلا تجسيد لهذه القدرة الفائقة على التعلم.

إن العلم هو ما يعين الإنسان على أداء دور الاستخلاف، سواء في البناء الاجتماعي أو الحضاري أو في الحفاظ على البيئة والموارد.

ثانياً: القابلية للتعلم ودورها في ترقية الإنسان:

١- التعلم وسيلة للارتقاء الروحي والعقلي:

التعلم في الإسلام ليس مقتصرًا على اكتساب المعارف المادية فحسب، بل يشمل أيضاً الارتقاء الروحي والعقلي؛ فالتعلم وسيلة لتهديب النفس وتوجيهها نحو الحق، ولذلك نجد أن في العديد من النصوص القرآنية والسنة النبوية دعوة قوية لطلب العلم، فبالتعلم يكتسب المسلم القدرة على التفكير في آيات الله والتدبر في الكون، مما يقوده إلى معرفة الله بشكل أعمق.

٢- التعلم والابتكار امتداد للاستخلاف في الأرض:

إن القابلية للتعلم تتيح للإنسان ليس فقط اكتساب المعرفة، بل استخدامها أيضاً لإحداث ابتكارات في شتى مجالات الحياة، هذا السعي المستمر نحو اكتشاف العلوم وتطويرها يتجسد في العديد من الاختراعات والابتكارات التي تساهم في تقدم البشرية وتحسين أوضاعها. لقد أرسى العلماء المسلمون في العصر الذهبي للإسلام العديد من العلوم الأساسية، من الطب والهندسة والفلك، وهي المجالات التي

استفاد منها الإنسان في مختلف أرجاء الأرض في العصر الحديث، ولا يزال التعلم والابتكار يشكّلان أحد أهم أبعاد الاستخلاف في الأرض، حيث يسهم الإنسان في تحسين الحياة البشرية وحمايتها ونشر مبادئه وتعزيز مواقفه في مسيرة التدافع بين الخير والشر عبر هذه الابتكارات.

٣- الاستخلاف منحة ابتلاء ليس مقصوراً على المؤمنين:

هناك فهم خاطئ لدى كثير من المسلمين مفاده أن الله يستخلف المؤمنين وأما غيرهم فلا يستخلفهم الله على الأرض ولا يُمكن لهم وهذا مصادم لنصوص الشرع وللواقع كذلك، يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [يونس: ١٣-١٤]، والمعنى أن الذين ما كانوا ليؤمنوا مع وجود البينات كانوا مستخلفين ممكنين في الأرض، فهو ابتلاء من رب العالمين الذي يربي الجميع بنعمه وانتقامه بمنحه ومنعه ويقول تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣١﴾﴾ [فاطر: ٣٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأحقاف: ٢٦]

فالتمكين المذكور هنا في سورة الأحقاف هو تمكين قوم عاد الذين كفروا بنبي الله هود قال الله في حالهم ﴿مَكَّنَّاكُمْ﴾، ويقول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا إِنْ تَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمْكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُحْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رَزَقْنَا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنْ

أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ [القصص: ٥٧] هكذا يَمُنُّ الله على قريش في هذه الآية من سورة القصص، ويذكرهم بنعمة كانت مستمرة فيهم على كفرهم وشركهم حيث مكّن الله لهم حرماً آمناً زمناً طويلاً كانوا فيه كفاراً به.

وعليه فإن أسس الحضارة وقواعد القوة وركائز التمكين جلّها تتكئ على مؤهل الاستخلاف الأول الذي أشارت إليه آية البقرة: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ ومن حاز الحظ الأكبر منه والنصيب الأوفر كان أقرب من غيره ليُستخلف ثم يُمكّن في محيطه من هذه الأرض، حيث يسخر تلك العلوم ليحقق رغباته في السيطرة وتغليب مبادئه أيّاً كانت مبادئ هدى أو ضلالاً.

ثالثاً: الاستخلاف بين التسبيح والعلم:

حين أعلن الله -عز وجل- للملائكة عن استخلاف الإنسان في الأرض، أبدت الملائكة استغرابها بناءً على معرفتها السابقة بطبيعة المخلوقات الأرضية، التي قد تفسد وتسفك الدماء، وقد عرضت الملائكة نفسها كمرشحة للاستخلاف، مبررة ذلك بتسبيحها لله وتقديسها له، إلا أن الله تعالى رد عليهم بأن لديه علماً بما لا يعلمون، ثم أبرز أهلية الإنسان للاستخلاف بتعليمه الأسماء كلها، مما جعله أقدر على القيام بمسؤوليات الاستخلاف.

تصور الملائكة عن الاستخلاف:

قدمت الملائكة مفهوماً مبنيّاً على تصور عبادي بحت، إذ اعتقدت أن التسبيح والتقديس هما المؤهلان الأبرزان للخلافة.

لم تنفِ الآية احتمال وقوع الفساد وسفك الدماء من الإنسان، لكنها أظهرت أن هذه الصفات ليست مانعاً من الاستخلاف، لأنها

قابلية للضبط من خلال التعليم والعقل.

العلم ميزة الإنسان الفريدة:

جاء الرد الإلهي بتأكيد أهمية العلم كميزة محورية تميز الإنسان عن غيره، مما يجعله قادرًا على التعامل مع تحديات الأرض وتوجيهها نحو الإصلاح بدل الفساد.

الاستخلاف مسؤولية مزدوجة:

الإنسان يجمع بين العبادة (التسبيح والتقديس) والعلم، مما يجعله الأقدر على تحقيق التوازن بين الروحانية وعمارة الأرض.

إدراك الإنسان لقابليته للفساد وسفك الدماء يعكس واقعية التكليف الذي يقوم على الموازنة بين قدراته الإيجابية والسلبية.

رد الله: إقرار بأن العلم والتعلم أداة للاستخلاف:

قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٣٥﴾ يشير إلى علم الله بما وضعه في الإنسان من قدرات فريدة.

التعليم الذي امتنَّ الله به على آدم ﷺ في الآية التالية تم استعراضه ليكون دليلًا عمليًا على هذا الرد، حيث اختبر آدم ﷺ والملائكة، فأثبت إن للإنسان تفوقه المعرفي.

رابعاً: دروس مستفادة من الآيات:

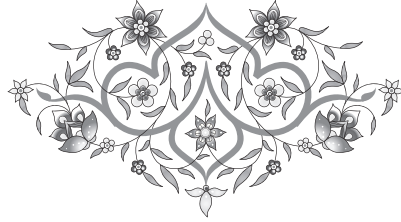
الاستخلاف ليس مجرد تكليف، بل هو قائم على مؤهلات محددة، أبرزها القدرة على التعلم والتطور.

العبادة والتسبيح، رغم أهميتهما، لا يكفيان وحدهما لتحقيق الاستخلاف، إذ أنَّ المسؤولية البشرية تحتاج إلى العلم والإبداع.

التساؤل الذي طرحته الملائكة يعكس أن العمل الصالح بشقه

الشعائري مع الابتعاد عن الفساد أيضًا لا يغنيان عن امتلاك أدوات العلم والحكمة لتحقيق الإصلاح والتمكن من ممارسة ذلك الإصلاح في ظل فاعلية التدافع في الأرض.

التعليم هو الركيزة الأساسية التي تجعل الإنسان قادرًا على بناء حضارة رشيدة وتحقيق توازن بين متطلبات العبادة وعمارة الأرض.



درس عملي عن خطورة الخطأ وكيفية التعلم منه

إن قصص القرآن هي أحسن القصص وكلام المنان أعظم الكلام واختيار مواقف معينة ومحطات في حياة البشرية يحدثنا الله عنها ويجلي لنا تلك المواقف ويبرز تلك المحطات له دلالاته العظيمة.

قال الله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يٰٓأَدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ٣٧﴾ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ تَّبِعَ هَدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ٣٩﴾ [البقرة: ٣٥-٣٩].

والإنسان عرضة للخطأ؛ لأن يخطئ، ولقد كان أول تعليم ذا أثر مميز وبارز في حياة البشرية تعليمًا بالوقوع في الخطأ والمعصية، وهنا يخاطب أولئك الذين لا يقبلون إلا الكمال من الناس ولا يتساحون مع أخطاء البشر، يقال لهم إن الله الذي خلق الإنسان ويعلم ما خلق وصف مخلوقه بصفات، قال تعالى: ﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا ٣٨﴾ [النساء: ٢٨] وقال تعالى: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا ٣٥﴾ [الإسراء: ١٠٠] وقال تعالى: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ ٣٧﴾ [الأنبياء: ٣٧] وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ٣٦﴾ [الأحزاب: ٧٢] وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ٣٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ٤٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ٤١﴾ [المعارج: ١٩-٢١] فقد خلقه الله ضعيفًا هلوعًا جزوعًا منوعًا عجولًا قتورًا ظلومًا جهولًا.

نعم وقد خلقه الله كذلك ليبتيه في مقاومة ومراغمة هذه القابليات

ويقوم نفسه وفق مراد الله تعالى الغفور الرحيم.

نقف مع آيات أخرى من سورة البقرة كذلك قول الله تبارك وتعالى:
﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ
شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ٣٥ فَأَزَلَّهُمَا
الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ
لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ٣٦ فَتَلَقَّى
آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ٣٧ قُلْنَا
أَهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا
خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ [البقرة: ٣٥-٣٨]

بعض المفاهيم حول هذه الآيات:

أولاً: كلما كان التعليم أبين وأوضح كانت عقوبة التجاوز أشد:

ولهذا خلق الله آدم وأفصح عن مراده من خلقه وبين موطن سكنه
ابتداءً حيث أخبر أنه مخلوق ليعيش في الأرض لا في الجنة ﴿إِنِّي جَاعِلٌ
فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] لكن شاء الله أن يتعلم آدم ﷺ قواعد
عظيمة وراسخة تثبت معه وتستقر في ذهنه وفي عقول ذريته من بعده،
فابتلاه ربه ليصير مؤهلاً بعد ذلك؛ لأن يهبط إلى موطنه الذي أعدّه
الله له مزوداً بعلم واضح لا لبس معه.

هذه الآية تعتبر واحدة من أبلغ الهدايات التعليمية في القرآن،
حيث يتضح منها أن التعليم الواضح تقتزن به مسؤولية أكبر، وعليه
فإن التجاوز أو مخالفة هذا التعليم يؤدي إلى عقوبة شديدة، فما هي
مدلولات هذه الآية وما الذي ترتب عليها من عقوبات؟

فمدلول قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾

التحذير الواضح والبيّن:

﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ هو أمر مباشر وواضح من الله تعالى لآدم وحواء عليهما السلام، لم يكن مجرد تحذير من الأكل منها فقط، بل كان تحذيرًا من الاقتراب منها، بمعنى أن الله لم يترك لهما مجالاً للشك أو التفسير، بل قدم لهما تعليمًا حازمًا ومحددًا بأداة النهي (لا) ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾، كان هذا التحذير شاملاً ومباشرًا.

الغاية من التحذير:

كانت الشجرة رمزًا للاختبار الذي وضعه الله - سبحانه وتعالى - لآدم وحواء عليهما السلام في الجنة، كان الهدف من هذا التحذير هو التأكد من طاعتهما لله وإبراز قدرتهما على الامتناع عن شيء مُحدد امتُحِنَا فيه، التحذير كان واضحًا جدًا، وهو ما يجعل تجاوز هذا التعليم أكثر خطورة.

الوضوح في التعليم:

علم آدم وحواء عليهما السلام بما هو ممنوع بوضوح كامل، وعليه فإن تجاوزه كان يتطلب إرادة واعية وقرارًا بالمعصية، وهذا الوضوح في التعليم كان من شأنه أن يُشدد المسؤولية في حال حدوث التجاوز، فتعليم الله واضح في هذا الشأن.

ثانيًا: ما ترتب على التجاوز من عقوبة:

عندما وقع آدم وحواء عليهما السلام في التجاوز وأكلا من الشجرة، ترتب على ذلك عقوبات واضحة،

قال الله تعالى بعد أن أكلا من الشجرة: ﴿فَدَلَّيْنَاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءُتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْتُ لَكُمَا

إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٢﴾ [الأعراف: ٢٢]

العقوبة الأولى: كانت الهبوط من الجنة إلى الأرض وهي كانت نتيجة مباشرة للتجاوز على التحذير الواضح.

العقوبة الثانية: الخروج من النعيم والراحة:

كان جزاء التجاوز هو الخروج من الجنة والانتقال إلى حياة جديدة على الأرض، حيث يُعاني الإنسان من التعب والمشقة. هذه العقوبة كانت شديدة نظرًا لنعمة الجنة التي كان يعيش فيها آدم وحواء عليهما السلام، وبالتالي كانت نتيجة مخالفة التعليم الإلهي عقوبة كبيرة.

العقوبة الثالثة: الشعور بالندم:

بعد التجاوز، بدأ آدم وحواء عليهما السلام يشعران بالندم على ما فعلاه، وبدأ في محاولة ستر عوراتهما بورق الجنة، وهذا يدل على أن العقوبة لم تكن فقط في الخروج من الجنة، بل شملت أيضًا شعورًا نفسيًا من الندم واللوم على التفريط في أمر الله. هذا هو أيضًا جزء من العقوبة، حيث يعيش الإنسان مع تداعيات أخطائه النفسية.

العقوبة الرابعة: العواقب الكونية:

بعد الهبوط إلى الأرض، بدأ الإنسان يعيش في عالم مليء بالمصاعب، وتعرض للعديد من التحديات، كما ذكر الله في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴿٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى ﴿٢٤﴾﴾ [طه: ١٢٣-١٢٤]

العقوبة لم تكن فقط في الهبوط، بل كانت في مواجهة الإنسان للعديد من التحديات والمصاعب في الدنيا، التي هي نتيجة مباشرة لخروجه من الجنة.



التعليم بالتجربة والتطبيق

وفي هذا المقام يأتي أول موقف حكاه الله لنا من مسيرة حياة هذا الإنسان على الأرض بعد إنزال الله له من الجنة، قال الله تعالى: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يُوَيَّلَتْنِي أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُورِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ [المائدة: ٣١]

تتحدث هذه الآية عن قابيل حين قتل أخاه هابيل، ولم يعرف كيف يتعامل مع جثته، في هذا الموقف أرسل الله غرابًا ليعلمه من خلال التجربة العملية كيف يورِي سوءة أخيه بدفنها، الغراب هنا كان أداة تعليم تطبيقية، أظهر لقابيل بشكل عملي الطريقة الصحيحة للتصرف، مما يعكس أهمية التعليم بالتجربة والتطبيق في التعلم البشري.

مفاهيم مستفادة:

أولاً: التعلم من الطبيعة والكائنات الأخرى:

الآية تبرز لنا أن الإنسان يمكن أن يتعلم من مخلوقات أدنى منه في التصنيف البيولوجي، إذا ما أحسن النظر والتفكير في سلوكها.

الغراب هنا كان معلمًا في موقف تطبيقي، مما يوضح أن التعليم ليس مقتصرًا على النصوص أو التلقين، بل قد يأتي من مشاهدات الطبيعة.

ثانيًا: التعليم بالتجربة كوسيلة لتجاوز الخطأ:

فقابيل لم يكن يعلم كيف يدفن أخاه بعد قتله، ولكن التجربة العملية التي رأى فيها الغراب وهو يدفن رفيقه أوجدت حلاً عملياً للمشكلة التي واجهها.

هذا يبين لنا أن الإنسان يتعلم بشكل أفضل من خلال المواقف العملية التي تتيح له رؤية حلول واقعية.

ثالثًا: الندم والتعلم من الأخطاء:

التجربة لم تكن تعليمًا تطبيقيًا فقط، بل حملت درسًا أخلاقيًا لقابيل حين أدرك فداحة خطئه وشعر بالندم.

هذا الربط بين التجربة العملية والدروس الأخلاقية يوضح لنا أن التعلم بالتجربة لا يقتصر على المعرفة التقنية، بل يمتد ليشمل القيم والمبادئ.

رابعًا: أهمية التطبيق في التعلم البشري:

موقف قابيل مع الغراب يُظهر لنا أن المعرفة النظرية وحدها قد لا تكفي، التجربة العملية هي ما يُحول المعرفة إلى مهارة قابلة للتطبيق في الواقع.

الغراب هنا رمز للتعليم العملي التطبيقي الذي يساعد الإنسان على التعامل مع تحديات الحياة.

التعليم العملي أداة فعالة لتحويل المعرفة النظرية إلى مهارات حياتية.

خامسًا: لفتات حول الآية:

التعليم الذي نسبه الله - سبحانه وتعالى - إلى نفسه لا يعني بالضرورة أن يكون محصورًا في رسالات الأنبياء والرسول ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا﴾ بل يمتد ليشمل كل ما يؤدي إلى صلاح الإنسان وإصلاح حاله، سواء كان ذلك علمًا شرعيًا مباشرًا أو علمًا طبيعيًا أو عمليًا، وهذه النظرة تُظهر أن العلم الذي يسهم في بناء الإنسان ورفعته، سواء في الدين أو الدنيا، هو علم شريف، ويستحق كل التقدير والاحترام.

١- العلم المنسوب إلى الله سبحانه لا يقتصر على علم الشريعة:

في القرآن الكريم، عندما يُنسب العلم إلى الله، فإنه يُعد من أسمى أنواع العلم وأعظمها، كما في قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١] حيث كان علم الله لآدم ﷺ يتعلق بالمعرفة الأساسية التي تحتاجها البشرية للبناء والعيش وفق فطرة الله.

لكن لا يقتصر تعليم الله على الوحي الديني وحده بل إن كل علم يعين الإنسان على تحقيق مصالحه في الدنيا والآخرة يعتبر علماً مفيداً وذا قيمة، وعلينا أن نفهم أن العلم بمعناه الأوسع يشمل جميع أشكال المعرفة التي تُسهم في إصلاح الإنسان، سواءً كانت علمية، فكرية، اجتماعية، أو حتى عملية.

فمثال بعث الله للغراب لتعليم ابن آدم ﷺ في قصة قابيل وهابيل هو مثال على أن الله يوجه الإنسان لتعلم كل ما هو مفيد في الحياة، سواءً كان ذلك عبر المخلوقات أو من خلال الظواهر الطبيعية، وفي هذه الحالة لم يكن الغراب يُعلم قابيل عبر وحي إلهي مباشر أو رسالة نبوة، وإنما كان يقدم له درساً عملياً في كيفية دفنه لأخيه، ورغم أن هذا ليس علماً دينياً تقليدياً، إلا أنه علمٌ عميق في معناه لأنه يسهم في حل مشكلة إنسانية وفكرية وهي كيفية التعامل مع الخطيئة.

٢- فضل العلم والتعلم يعم كل علمٍ يُنتفع به:

كما أن الأنبياء يُعلمون الأمة دينهم، فإن غيرهم من العلماء والمفكرين، حتى في مجالات العلوم الطبيعية والتطبيقية، لديهم مكانة عظيمة في الإسلام، فالرسول ﷺ قال: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا، سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ» صحيح مسلم وهذا الحديث يدل على

أن العلم، في أي مجال من مجالاته، يُعتبر طريقاً للخير والهداية.

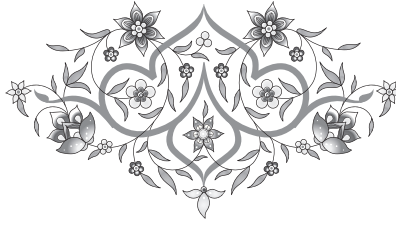
بل إن الإسلام لا يفصل بين العلم الديني والعلمي، فكل علم يسهم في تقدم الإنسانية ورفعة شأنها له قيمته في الإسلام، على سبيل المثال، العلم في مجالات الطب، الهندسة، الفلك، والزراعة جميعها تعتبر من العلوم التي يجب السعي وراءها وتقديرها، لأنها تساهم في تسهيل حياة الناس وتحقيق مصالحهم، وبالتالي هي جزء من تكريم الإنسان والاستفادة من مِنة الله عليه.

بالعلم يعالج الأخطاء:

من خلال هذا الفهم، يمكننا أن نقول أن العلم كما أنَّه وسيلة لفهم النصوص الدينية في الجانب الشعائري الذي يعد أحد جوانب الاسلام والاستسلام لله إذ الاسلام كُلُّ لا يتجزأ فكما أنه شعائر ينبغي على العبد إقامتها فهو كذلك شرائع ينبغي الإيمان بصلاحها وإقامة ما استطاع منها وكذا هو أخلاق فاضلة نتحل بها ونجتنب الرذائل وكذا سنن وقوانين حاكمة ينبغي معرفتها بالسير في الأرض في المجالين الزماني والمكاني، وهنا في جانب السنن، والحاكمة يعد العلم المادي والإنساني بمختلف مصادره القائم على الحقائق أداة أساسية لمعالجة المشاكل البشرية وتوجيه الإنسان نحو الصواب، وفي هذا الإطار، يمكننا أن نرى كيف أن تعليم الغراب لقابيل كان جزءاً من عملية إصلاح الأخطاء البشرية ومبعوثاً من الله تعالى.

فالغراب لم يعلم قابيل فقط كيف يدفن جثة أخيه، بل كان هذا الحدث محفزاً له لتأمل نفسه وأخطائه، فكما أن هذا العلم البسيط قد كان كافياً لتوجيهه في هذا الموقف فإن العلم الذي يسهم في إصلاح النفس والمجتمع من أسمى العلوم وأعظمها عند الله تعالى.

ففي ديننا الإسلامي يُعتبر العلم بكل أنواعه وسيلة للارتقاء
بالإنسان وتوجيهه نحو الطريق الصحيح والعلوم التي تساهم في إصلاح
البشرية وتحقيق مصالحها في الدنيا والآخرة تُعتبر علومًا شريفة، وعلوم
الدين لا تتناقض مع العلوم الأخرى التي تعود بالنفع على المجتمع،
بل جميعها تساهم في بناء حياة أفضل للإنسان، وبالتالي من المهم أن
يكون لدينا فهم شامل للعلم سواءً في تفسير النصوص الدينية أو في
تحقيق التقدم العلمي والرقى العملي الذي يخدم الإنسانية.



طلب الاستزادة من العلم واليقين

من الهدايات التعليمية العميقة في كتاب الله تأتي قصة إبراهيم عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَرَأَيْتَ إِنْ أَتَيْنَاكَ سَعِيًّا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠]

ففي هذه الآية، يطلب النبي إبراهيم عليه السلام من الله تعالى أن يُريه كيف يُحيي الموتى، وطلب إبراهيم عليه السلام كان طلباً علمياً معرفياً يهدف إلى زيادة الإيمان في قلبه، وهو طلب مشروع يعبر عن التفاعل الإيماني مع قدرة الله - عز وجل -، إذ كان في قلبه يقينٌ لكن مع ذلك كان يريد مزيداً من الطمأنينة والتأكيد على قدرة الله - سبحانه وتعالى -.

أولاً: السؤال عن المعرفة لزيادة الإيمان:

من الهدايات العميقة في هذه الآية أن السؤال عن العلم وطلب المعرفة ليس مذمومًا إذا كان الهدف منه زيادة اليقين والإيمان بالله، فإبراهيم عليه السلام كان مؤمناً بالفعل بقدرة الله، لكنه أراد أن يطمئن قلبه أكثر وهذا يبين لنا أن السؤال المشروع ليس دليلاً على ضعف الإيمان، بل قد يكون وسيلة لزيادة الإيمان والطمأنينة.

ثانياً: الحاجة إلى الإيضاح والتفصيل:

فالإيضاح والتفصيل من الأمور المشروعة مادام القصد مشروعاً ﴿وَلَكِنْ لِّيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي﴾، ولذا أخبر الله تعالى عن السجية والجبلة التي امتن بها على نبيه إبراهيم عليه السلام، وربما نال درجة الخلّة حيث كان متسائلاً باحثاً في جنبات الكون متعمقاً في مظاهر قدرة الله تعالى فصار صاحب حجة ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ﴾

[الأنعام: ٨٣]، وطلب إبراهيم عليه السلام من الله أن يُريه كيف يتم إحياء الموتي هو طلب فطري يعكس الرغبة في الفهم الكامل والتفصيل، من هنا نتعلم أن الإيضاح والتفصيل في العلم من الأمور التي تساعد المؤمن على تعزيز فهمه لله تعالى وقدرته ليصل إلى درجة اليقين التي بلغها هذا المتسائل فكان من الموقنين، فاسمع معي متدبراً قول الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِىٰ إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُوْنَ مِنَ الْمُوقِنِيْنَ﴾ [الأنعام: ٧٥].

ثالثاً: الإيمان والتفاعل مع العلم:

بالرغم من أن إبراهيم عليه السلام كان مؤمناً، إلا أنه طلب دليلاً محسوساً لتعميق إيمانه، وهذا يعلمنا أن الإيمان القلبي لا يتعارض مع طلب العلم والتفكير في آيات الله، بل هو أمر مشروع يساعد على تعميق العلاقة مع الله.

رابعاً: التعليم بالوسائل التربوية والمشاهد الواقعية:

استجاب الله تعالى لطلب إبراهيم عليه السلام، فطلب منه أن يأخذ أربعة من الطير ثم يجزئها، ويدعوها لكي تعود إلى الحياة، هذه المعجزة العملية كانت وسيلة تعليمية مباشرة ومشهوداً لها من إبراهيم عليه السلام، وهي بمثابة درس عملي لفهم قدرة الله تعالى.

من خلال هذا المشهد، يعلمنا الله درساً هاماً في التعليم العملي الذي يرتبط بالقدرة الإلهية، وكيف أن المشاهدة الحية والمباشرة تكون أكثر تأثيراً في ترسيخ الفهم.

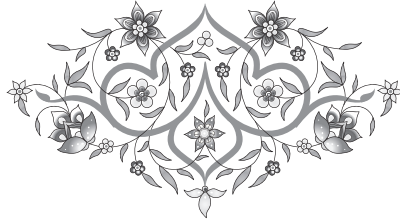
خامساً: الطمأنينة بالنظر إلى قدرة الله تعالى:

الله تعالى لم يرفض طلب إبراهيم عليه السلام، بل استجاب له من خلال تعليم عملي مؤثر، وهذه الاستجابة تعلمنا أن التفاعل الإيجابي مع الله

بالأسئلة المشروعة يمكن أن يعزز الطمأنينة النفسية، إذ أن طلب العلم لا يعني التشكيك في قدرة الله، بل قد يكون أداة تقوية للإيمان.

سادساً: دروس في الرحمة الإلهية والاعتناء بالعباد:

استجابة الله لإبراهيم عليه السلام هي رحمة من الله لتقوية قلب نبيه، بل وتُظهر اهتمام الله بأن يزيل أي شكوك قد تكون في نفس المؤمن مما يدل على أن الله رحيم بعباده ويُستحب أن يطلب المسلم من الله ما يعينه على زيادة إيمانه.



تيسير الله على عباده وطلب الاتجاه إلى طاعته

التعليم بالقصص يعد من أبرز الأساليب القرآنية الفعّالة في التوجيه والإصلاح، وفي سورة البقرة نجد العديد من القصص التي تحمل دروسًا وعبرًا تعليمية عظيمة، واحدة من أهم القصص في هذه السورة هي قصة بقرة بني إسرائيل، وهي قصة تحمل في طياتها العديد من الهدايات التعليمية التي تُظهر تيسير الله لعباده والتوجيه إلى طاعته، بالإضافة إلى دروس في الصدق في التوجه والطاعة.

قصة بقرة بني إسرائيل:

تبدأ القصة عندما قُتل أحد بني إسرائيل، فاختار القاتل أن يهرب من المسؤولية ويخفي جريمته، وعندما وقع هذا الحدث، بدأ القتل يسبب فوضى بين بني إسرائيل، مما جعلهم يطلبون من نبيهم موسى عليه السلام أن يُظهر لهم القاتل، فكان الجواب من الله - سبحانه وتعالى - أن يذبحوا بقرة، ويضربوا القاتل بجزء منها لكي يظهر القاتل.

لكن القصة لم تكن مجرد حدث عادي، بل كانت اختبارًا لبني إسرائيل في صدق توجههم وتفاعلهم مع أمر الله، حيث جاءهم أمر الله بذبح بقرة، وكان المفترض أن يكون ذبح البقرة أمرًا بسيطًا لكن بني إسرائيل بدأوا في التشدد والبحث عن تفاصيل دقيقة جدًا، كما في الأسئلة التي طرحوها على موسى عليه السلام: «مالونها؟» و«ماذا صفاتها؟» حتى وصلوا إلى نوع البقرة وحجمها، في حين كان الله - سبحانه وتعالى - قد أمرهم بذبح أي بقرة دون التعلق بتفاصيل معقدة أبرز الهدايات التعليمية من القصة:

أولاً: تيسير الله على عباده: من أبرز الدروس المستفادة من القصة أن الله

- سبحانه وتعالى - يُيسر لعباده الطاعة ولا يُكلفهم ما لا طاقة لهم به، ففي البداية كان الأمر ببساطة ذبح أي بقرة، لكن بني إسرائيل شددوا في المسألة، فأجابهم الله بمواصفات دقيقة للبقرة، مما جعل الأمور معقدة أكثر، وهذا يُظهر أن الله لا يُريد التشديد على عباده، بل يُريد التوجه بصدق إلى طاعته من دون تحميل الإنسان همومًا أو تعقيدات غير ضرورية.

هذا يُعلمنا أنه ينبغي على المسلمين أن يسهلوا على أنفسهم في طاعة الله وألا يتشددوا في أمور الدين التي لم تُحدها النصوص بشكل دقيق. ثانيًا: ضرورة الإخلاص في التوجه إلى الله - سبحانه وتعالى -:

القصة تبرز أن المقصد من الطاعة هو التوجه الصادق إلى الله، والنية في تنفيذ الأوامر الإلهية لو كانت الطاعة بسيطة، كما كان الحال في أمر ذبح البقرة، فإن التوجه القلبي الصادق والإخلاص لله هو الأهم ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَائُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ﴾ [الحج: ٣٧] المؤمن يجب أن يُركز على الإخلاص في نية الطاعة وعدم التعلق بالأمور الفرعية أو التفاصيل التي قد تشتت انتباهه عن الهدف الأساسي وهو التقرب إلى الله.

ثالثًا: الابتعاد عن التشدد في الدين:

في بداية القصة، كان من المفترض أن يكون أمر الله ببساطة ذبح بقرة، ولكن بني إسرائيل قاموا بتشديد الأسئلة وطلبوا مواصفات دقيقة للبقرة حتى أصبح الأمر أكثر صعوبة، وهذا يُظهر مساوئ التشدد في الدين الذي يؤدي إلى تعقيد الأمور على الناس، وهو أمر غير مرغوب فيه.

من هنا نستفيد أن الإسلام دين يسر وسهولة، وأن الاعتدال هو الأساس في الدين وفي التعامل مع طاعة الله.

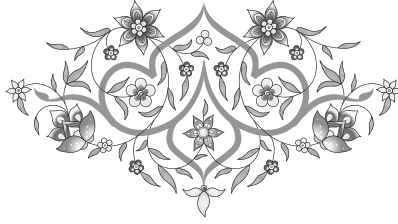
رابعاً: التأكيد على أهمية الطاعة الجماعية:

في القصة أيضاً يمكن أن نلاحظ أن الله - سبحانه وتعالى - أراد لبني إسرائيل أن يلتزموا بأمره الجماعي، فذبح البقرة كان عملاً جماعياً بهدف إزالة الفتنة وتحقيق العدالة بين الناس.

تعزير فكرة أن التعاون على البر والتقوى هو السبيل لتحقيق النجاح الجماعي في الإسلام.

خامساً: الدعوة إلى التسليم لله - سبحانه وتعالى -:

الله - سبحانه وتعالى - أمر بني إسرائيل بذبح البقرة، ولكنهم بدأوا في التشدد وسؤال موسى عليه السلام عن تفاصيل غير ضرورية. وعندما تزايدت التفاصيل، شعروا بالأمر أكثر تعقيداً. هذا يُعلمنا أن التسليم لله هو الطريق الأنسب للطاعة، وألا نغرق في التفاصيل التي قد تضلنا عن الهدف الحقيقي من الطاعة.



التعليم بالحوار والحجج العقلية

درس قرآني من حوار إبراهيم ﷺ مع قومه

يعد التعليم بالحوار أحد أبرز أساليب التربية والتوجيه التي استخدمها القرآن الكريم لتهذيب النفوس وتوجيه العقل البشري نحو الحقيقة، ومن أبرز الأمثلة القرآنية التي تمثل هذه الطريقة في التعليم هو حوار النبي إبراهيم ﷺ مع قومه، فقد علمنا القرآن الكريم أن التعليم بالحجج العقلية المقنعة والتفاعل مع عقول المخاطبين وتقديم الأدلة التي تلائم مستوى تفكيرهم، هو أسلوب مؤثر للغاية في إقامة الحجة وإقناع الآخر، وهذه الطريقة ليست فقط وسيلة تعليمية، بل هي هداية تعليمية تهدف إلى إيقاظ العقل وتوجيهه نحو الحق.

في هذا البحث، سنتناول حوار إبراهيم ﷺ مع قومه، الذي ورد في القرآن الكريم، كمثال واضح على التعليم بالحوار والاستدلال العقلي، وسوف نستعرض كيف أن هذا الحوار بدأ بتنزل الله - عز وجل - لإبراهيم ﷺ ليعظه ويعطيه الحجة والبرهان في مواجهة الجاهلية والضلال. كما سنتوقف عند تحليل منهجية الحوار وأساليب الدعوة التي استخدمها إبراهيم ﷺ مع قومه، وكيف يمكن تطبيق هذه الطرق في تعليم الناس وإقناعهم بالحجج العقلية.

حوار إبراهيم ﷺ مع قومه: بداية الحوار، في الآيات الكريمة: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ عَازِرَ اتَّخِذْ أَصْنَامًا ءِلَٰهَةً إِنِّي أَرُكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ٧٥﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَيْكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ٧٥ ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أَحِبُّ ٱلْأَفْلَٰقِينَ ٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ ٱلْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ

الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسُ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَقْنُومُ إِلَيَّ بَرِيءٌ مِمَّا تَشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحِبُّونَنِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ [الأنعام: ٧٤-٨١].

أولاً: الحوار والتعليم بالتَّزَلُّز إلى مستوى عقلية المخاطب:

في هذه الآيات، نلاحظ أن الله - سبحانه وتعالى - بدأ بتعليم إبراهيم عليه السلام من خلال إظهار ملكوت السماوات والأرض؛ كي يزداد يقينه ويتحقق له المعرفة الحقة. وهذا يعكس منهجاً مهماً في التعليم، وهو التَّزَلُّز إلى مستوى عقلية المتعلم. فقد أظهر إبراهيم عليه السلام لأول مرة كيف أن الأفكار والمفاهيم التي كانت سائدة في قومه كانت تتناقض مع الحقيقة الواضحة التي جاء بها فقد قال لهم: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: ٧٦].

في هذه الجملة، كان إبراهيم عليه السلام في بداية الأمر يطرح فكرة تناسب مستوى تفكير قومه، حيث اعتادوا على عبادة الكواكب والأجرام السماوية، فأراد أن يؤسس الحجة على ما يعرفون، ثم يتدرج معهم ليصل بهم إلى الحقيقة الأعلى.

ثانياً: الحوار بالحجج العقلية المقنعة:

كانت حجج إبراهيم عليه السلام في حوارهِ مع قومه حججاً عقليةً، تبدأ من الأمور التي يعرفونها ويتعاملون معها يومياً، وتدرجياً انتقل بهم إلى الحقائق العليا فعندما قال: ﴿فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أَحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ [الأنعام: ٧٦]،

كان إبراهيم عليه السلام يحاول أن يقنع قومه بأن أي شيء يفنى أو يتغير ليس بآله حقيقي وبالتالي قدّم لهم أولاً حجته العقلية حول الخصائص التي لا تليق بالله، ثم استمر في استخدام العقل والمنطق حينما رأى القمر بازغاً وقال: ﴿هَذَا رَبِّي﴾، لكن سرعان ما كشف لهم التناقض في اعتقادهم عندما قال: ﴿فَلَمَّا أَفْلَ قَالَ لَا أَحِبُّ الْأَفْلِينَ﴾ ﴿٧٦﴾ إبراهيم عليه السلام كان ينقل محاوريه من الاعتقاد المادي إلى التفكير العقلي السليم الذي يُظهر لهم حدود وعيهم، ويقنعهم بأن الله - سبحانه وتعالى - وحده هو الخالق والرازق.

ثالثاً: تنوع الأساليب في الحوار والإقناع:

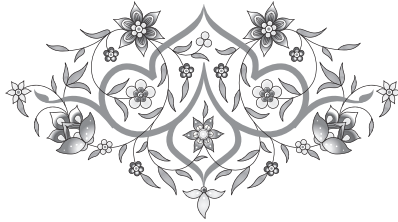
إبراهيم عليه السلام استخدم أساليب متعددة في الحوار مع قومه، ابتداءً من الاستفهام الذي يفتح المجال للتمحيص والتفكير، وصولاً إلى طرح الحجج العقلية التي تدفع المستمعين للتفكير في معانيها فقد بدأ بالاعتماد على العقل والاهتمام بالآيات الكونية (مثل الكوكب والقمر)، ثم انتقل إلى مسألة الخلق والوجود.

وتظهر هذه الطريقة في الحوار بوضوح في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ ﴿٧٥﴾ [الأنعام: ٧٥] فقد استخدم إبراهيم عليه السلام لغةً قريبة إلى عقول قومه وطرح أمامهم أسئلة منطقية كانت تؤدي إلى الحقيقة التي يريد أن يصلوا إليها.

رابعاً: محاولة الإقناع بتقمص دور المخاطب:

من أروع أساليب الحوار في القرآن الكريم هو تقمص دور المخاطب وتقديم حجج منطقية تناسبه، ونلاحظ ذلك في حوار إبراهيم عليه السلام مع قومه كيف أنه بدأ يعرض عليهم مفاهيم قابلة للاستيعاب ثم يتدرج بهم نحو الحقائق العليا فلم يبدأ مباشرة بالتحدي أو رفض

المعتقدات السائدة بل استخدم التدرج الفكري.
هذه الطريقة القرآنية في التعليم والحوار تشكل منهجاً تربوياً يمكن
تطبيقه في الدعوة إلى الله وفي العديد من مجالات الحياة الأخرى.



العلم والتعليم المحور الأول للرسالة القرآنية

منذ بداية الخلق، كان العلم هو الوسيلة الأساسية التي بدأ بها الله - سبحانه وتعالى - تجليها لعباده، مُبرزًا لها في قصة خلق آدم ﷺ، وفي أول رسالة لآدم ﷺ ولذريته ومن هنا يتجلى لنا دور التعليم كأداة أساسية في إحياء مفاهيم وقيم الإنسانية.

إن أول آية نزلت من القرآن الكريم على نبينا محمد ﷺ ابتدئت بكلمة ﴿اقْرَأْ﴾ هذه الكلمة البسيطة التي تحمل في طياتها دعوة عظيمة للفهم والتعلم وفتح أبواب المعرفة والوعي، قال تعالى: ﴿اقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝﴾ [العلق: ١-٥] آيات بارزة تبين محورية العلم في رسالة الإسلام، وكيف أن العلم والتعليم كانا من أولويات الرسالة القرآنية، وهنا، سنتناول دلالة هذه الآيات وأثرها على فهمنا للتعليم في الإسلام ودوره في بناء الإنسان.

أولاً: العلم أساس في رسالة الله تعالى:

في الآية الأولى من السورة، نزلت كلمة ﴿اقْرَأْ﴾ كأمر من الله تعالى لنبيه محمد ﷺ، وهو أمرٌ يشتمل على أكثر من مجرد القراءة اللفظية أو الشكلية، بل هو دعوة إلى طلب العلم والفهم بدءاً من هذه الكلمة، نرى أن القرآن يبدأ رسالته بتوجيه الإنسان نحو العلم، وفتح الأفق المعرفي من خلال التعليم المستمر، هذا التعليم ليس فقط معرفة العالم المادي، بل أيضاً العلم الروحي، وبهما تتحقق معرفة الله الذي هو الهدف الأسمى من العلم.

إن هذا التوجيه القرآني يؤكد على أهمية الاستفادة من العلم في تحقيق التوازن بين الدنيا والآخرة، وبين العلوم المادية والعلمية والروحية، فالغاية من العلم هي الارتقاء بالإنسان في كل جوانب حياته.

ثانيًا: دلالة خلق الإنسان من علق:

في الآية الثانية: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾...هنا، يُذكر الله تعالى البشر بأصلهم الأول، حيث خلقهم من العلق، وهو ما يعكس البداية الضعيفة للإنسان الذي بدأ من نقطة لا تُرى، وهذه الدلالة العميقة تؤكد على أن الإنسان الذي بدأ من نقطة ضئيلة في رحم أمه قادر على الوصول إلى أعلى مراتب العلم والفضيلة إذا ما سلك طريق العلم والتعلم، فيصبح قادرًا على فهم الكون والحياة.

العلم هو ما يُخرج الإنسان من الظلمات إلى النور، ومن الجهل إلى المعرفة، فمن خلال العلم يتطور الإنسان وينتقل من الجهل إلى الوعي، حيث يبدأ في الإحساس بأبعاده الروحية والمادية.

ثالثًا: التعلم مفتاح لخزائن الكريم المتّان:

إنما العلم بالتعلم والذي يرى ما وصلت إليه البشرية عند قبولها مِنَّة الله تعالى الذي امتن بتسخير كل شيء لهذا الإنسان فجعلت العلم عدتها والذي يرى ذلك يدرك معنى الكرم الذي ربطه تعالى بوسيلة العلم والمعرفة فقال: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾... فعلى أن نعي ذلك لنبدأ بداية صحيحة لنيل نصيبنا من كريم الكريم كأمة مكرّمة فإن أعرضنا فلا كرامة لنا، وسنمكث في دائرة أمانى البطالين الباطلة فالحياة سنن من أخذ بها ارتقى ومن جانبها كان (كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه).

رابعًا: العلم بالقلم:

والآية الرابعة: ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾، هنا نجد أن العلم مرتبط بالقلم، الذي يُعتبر أداة نقل المعرفة وتوثيقها، وحفظها للأجيال القادمة، والقلم ليس فقط أداة الكتابة، بل هو رمز للعلم والتعلم عبر الأجيال. في هذه الآية، يربط الله تعالى العلم بالقلم كدليل على ضرورة التوثيق والانتقال المعرفي عبر الأجيال.

وتجسد هذه الآية دعوة الإسلام للمؤمنين بأن ينقلوا المعرفة إلى الأجيال القادمة، عبر الكتابة والقراءة، وأن يكون التعليم هو الوسيلة الأساسية لبناء الأمة ونقل الحضارة.

خامسًا: العلم الذي يرفع الإنسان:

الآية الخامسة: ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾، هذه الآية تبين أن العلم هو الوسيلة التي تجعل الإنسان يكتشف ما كان يجهله فالله تعالى قد منح الإنسان القدرة على التعلم والتطور في جميع ميادين المعرفة، والمعرفة التي يعرضها القرآن ليست محدودة بل عميقة وشاملة، تشمل كل شيء من العلم الطبيعي إلى العلم الإيماني.

ومن هنا، نجد أن هذه الآية تدعونا إلى الاستمرار في البحث والتعلم، وعدم التوقف عند حدود ما نعلمه، بل العمل على توسيع آفاقنا المعرفية، هذه دعوة لتحقيق التطور العلمي المستمر الذي يعود بالنفع على الفرد والمجتمع.

سادسًا: دور العلم في تجديد قيم الإنسانية:

القرآن الكريم في بداية رسالته يبين لنا أن العلم هو الوسيلة التي من خلالها يتمكن الإنسان من إحياء قيم الإنسانية، فالعلم هو ما

يجعل الإنسان يتعرف على ذاته ويتفكر في وجوده، كما يفتح أمامه أبواب الفهم والتفاهم مع غيره، ومن خلال العلم يعزز الإنسان قيم التعاون، والعدل، والمساواة، والتراحم، وهي كلها قيم إنسانية جوهرية.

سابعًا: علاقة العلم بالإيمان:

إن العلم في القرآن الكريم لا يُعتبر مجرد تراكم للمعلومات، بل هو وسيلة للوصول إلى الإيمان، فالذين يتعلمون ويعملون بعلمهم، يزدادون إيمانًا، كما أن العلم يساعد في فهم رسالات الأنبياء وفهم حكمة وجود الإنسان في هذا الكون، وعليه فإن العلم في الإسلام هو طريق إلى الإيمان والفهم العميق لحقائق الدين والحياة.

إن الآيات الأولى من سورة العلق هي آيات تأسيسية لمنهجية التعليم في الإسلام، تبرز أن العلم هو الأساس الذي يُبنى عليه الإنسان، فبالعلم يتوصل الإنسان إلى فهم نفسه، وفهم العالم، وتدبر آيات الله في الكون، كما أن هذه الآيات تدعونا إلى التعليم المستمر، وإلى استخدام أدوات العلم مثل القلم لتمرير المعرفة من جيل إلى جيل، وتحقيق التطور والرفعة، إن العلم في القرآن الكريم ليس مجرد مجموعة من الحقائق المادية، بل هو وسيلة لرفع الإنسان إلى آفاق أسمى من المعرفة والتقوى والعبودية لله.

وفي الختام نقول: إن بين الهداية الأولى التي تجلت معالمها مع بدء الخليقة والهداية الأخيرة التي أكدت تلك المعالم عند ابتداء الرسالة الخاتمة هناك هدايات عظيمة يزخر بها كلام الله العظيم لكل متدبر لكتاب الله باحث عن مراد ربه تعالى غير مكتفٍ بهدً حروفه أو عدّها.

أقوم الهدايات الاجتماعية

- ✧ التذكير بالأصل الإنساني.
- ✧ التقوى شرط استمرارية العلاقات.
- ✧ العدالة شرط لقيام العلاقات وتكاملها.
- ✧ إرساء مبدأ التكافل الاجتماعي.
- ✧ التأكيد على أهمية الوفاء بالعهود والمواثيق.
- ✧ التأكيد على خلق الإحسان.
- ✧ إرساء مبدأ العفو والصفح.
- ✧ النهي عن كل ما يفتت النسيج الاجتماعي.

— د. جميل صالح محمد —

القرآن الكريم ليس كتابًا خاصًا بالجانب العقدي فقط، أو كتابًا لسن القوانين والتشريعات والأحكام، أو خاصًا بالجانب الروحي، أو إرشادات أخلاقية للإصلاح الاجتماعي فحسب، وإنما هو مزيجٌ شاملٌ لكل هذه الأمور فما إن يطرق جانبٌ من هذه الجوانب إلا ورأيتُه معينًا لا ينضب، وبحرًا زاخرًا لا قعر له، وكنزًا مليئًا بالجواهر والدرر، وهو بحاجة إلى سباحٍ ماهرٍ يحسن الغوص إلى أعماقه ليستخرج منه كنوزه وأسراره، ويقرأه بعمق وفهم وتدبر لتستبين له هداياته، كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩] .

وعليه فهو من الناحية الاجتماعية يعد مرجعًا شاملًا يوجه الإنسانية نحو بناء مجتمع فاضل، تسود فيه قيم المحبة والمساواة، وتترف فوقه قيم العدالة الاجتماعية، ولذا اشتمل القرآن الكريم على العديد من الآيات التي تتضمن جملةً من الهدايات الاجتماعية، والتي من جملة أهدافها ومقاصدها وهداياتها تحسين العلاقة بين الناس، وتأسيس لبنات حقيقية في رقي المجتمع وحضارته ورفاهية أبنائه، وهي ما سنحاول بعون الله تعالى وتوفيقه الوقوف عليها عبر مجموعة من النقاط تم ترتيبها على النحو التالي:

التذكير بالأصل الإنساني

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [النساء: ١]، ويقول تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [الأنعام: ٩٨]، ويقول عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [الأعراف: ١٨٩]، ويقول - سبحانه وتعالى -: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [الزمر: ٦] هذه الآيات الأربع تتضمن العديد من الهدايا الاجتماعية ومنها:

أولاً: الدلالة على وحدة الأصل الإنساني، وأن هؤلاء البشر المنتشرين في أقطار المعمورة بمختلف أشكالهم ولوانهم ولغاتهم وأديانهم ينحدرون من نفس واحدة، ففيها التأكيد على وحدة الجنس البشري وأنا جميعاً أخوة في الإنسانية.

ثانياً: إرساء مبدأ المساواة بين البشر وإزالة رواسب الجاهلية القائمة على الطبقية والتفاخر بالآباء والأحساب والأنساب، وفي هذا يقول الرسول ﷺ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلَا أَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ، إِلَّا بِالتَّقْوَى» مسند الإمام أحمد بن حنبل.

وإنه لمن المؤسف حقاً أن تجد كثيراً من الناس لا يزالون إلى اليوم يعيشون بعقلية الجاهلية الأولى بعد أن نسفها الإسلام نسفاً، ومحي آثارها من الأساس، فهناك من لا زال يعير الآخرين ليس لعدم كفاءتهم في تقديم الأعمال النافعة مثلاً، أو لقيامهم ببعض الأعمال التي تزعزع الأمن وتذهب بالسكينة العامة، بل يعيرهم بأنسابهم، وهي لوثة من لوثات الجاهلية التي تخامر العقل وتصبغ السلوك والتصرف حينما

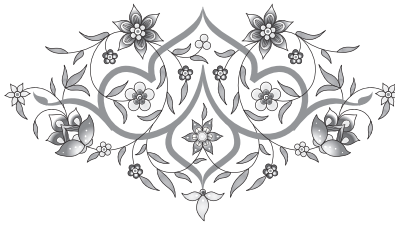
يبتعد الإنسان عن القراءة التدريبية للقرآن الكريم.

إن هذا المبدأ الذي تهدي إليه هذه النصوص القرآنية هو من أعظم وسائل تكامل المجتمعات وقيامها وتماسك لبناتها، وكل دعوة تفرز المجتمع إلى شريف ووضع وسيد ومسود هي دعوى جاهلية محصلتها النهائية تمزيق النسيج الاجتماعي وتفتيت وحدة الأمة.

هذا الأصل القرآني الذي تؤكد عليه هذه الآيات لا يعني عدم وجود تمايز بين البشر لكنه التمايز الذي يتم اكتسابه بالخبرة والمهارة والكفاءة والعلم والعمل وليس التميز الذي يتم تناسله عبر الجينات الوراثية.

ثالثًا: تذكير البشر بأنهم من نفس واحدة ينمي فيهم قيمة الرأفة والرحمة والعطف واللين، فيرحم قويهم ضعيفهم، ويعطف غنيهم على فقيرهم، فتشيع المحبة والوئام، وتختفي أو تقل العداوة والخصام.

رابعًا: نبذ التميز والعنصرية بكافة أشكالهما وألوانهما ومسمياتهما، مهما حاول البعض صبغهما بالصبغة الشرعية؛ لأن ذلك يناقض الأصل القرآني الذي يؤكد على أن جميع البشر يشتركون في أصل الخلقة، وينحدرون من نفس الأصل، وأن التفاضل بينهم إنما له أسبابه ومسبباته والتي بالطبع ليس النسب أهمها.



التقوى شرط استمرارية العلاقات الاجتماعية

قال تعالى: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧] يروى عن الحسن البصري أنه قال: «استكثروا من الأصدقاء المؤمنين، فإن لهم شفاعاة يوم القيامة» فينبغي للمؤمن أن يختار لعلاقاته الاجتماعية من يجانسه أو يكون أعلى منه في التقوى والطاعة ليكون له عونًا بذلك على تحقيق مرضاة الله، ولذا يُروى أن أبا إسحاق الغزي نظم بيتًا بشكل سؤال هو قوله:

مالي أرى الشمع يبكي في مواقده من حرقة النار أم من فرقة العسل
فأعلنت إحدى الصحف عن جائزة لمن يستطيع الإجابة عنه،
فاختلفت إجابة بعض الشعراء فبعضهم قال هو بسبب الألم من
النار، وبعضهم قال هو بسبب فرقة الشمع للعسل، فلما بلغ الشاعر
صالح طه ذلك أجاب بقوله:

من لم تجانسه فاحذر أن تجالسه ماضراً بالشمع إلا صحبة الفتل
ففاز بالجائزة.

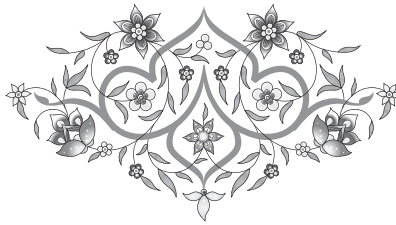
وعليه فالهدايات القرآنية التي يمكن أن نستخلصها من الآية السابقة هي:

أولاً: تشير الآية إلى أن الصداقات والعلاقات الاجتماعية المبنية على غير تقوى الله - سبحانه وتعالى - قد تكون مصدر عداوة في الآخرة؛ لذا يجب علينا أن نكون حذرين في اختيار أصدقائنا، وإقامة علاقاتنا، ونحرص دائماً أن يكونوا من المتقين.

ثانياً: أهمية التقوى في الحفاظ على العلاقات الاجتماعية، فالعلاقة

التي أسست على التقوى تبقى قائمة في الآخرة والأولى؛ لأن العلاقات الاجتماعية كالبناء ولذا فنحن نستعمل في تعبيرنا عنها أحياناً لفظة بناء العلاقات وهي كذلك أصلاً، فما كان أساسه قوياً كان أكثر صموداً وتماسكاً، وما كان أساسه هشاً كان آيلاً للتصدع والانهيار لأنفه الأسباب، وكذا العلاقات الاجتماعية ما كان أساسها التقوى فإنها ستبقى قائمة مهما حصل من اختلاف وجهات النظر أو تقاطع بعض المصالح، وأما العلاقة التي أسست على غير التقوى فإنها قائمة بقيام سببها وزائلة بزواله من المصالح والمنافع وربما الاستغلال، وفي هذا يقول الله تبارك وتعالى: ﴿أَقْمِنِ أَسَسَ بُنْيَانِهِ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مِّنْ أَسَسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ [التوبة: ١٠٩] والبيان هنا وإن كان حقيقةً في البناء المادي لكنه أراد به تشبيه المعنوي بالمادي لتقريب الصورة للأذهان، والمقصود بالمعنوي هنا كل ما يندرج تحت العقائد والأخلاق والمعاملات ويدخل فيها أيضاً العلاقات الاجتماعية فالكامل يشملها لفظ البيان والبناء.

ثالثاً: العلاقات الدنيوية لها أثر في الآخرة، وسنحاسب على نوعية العلاقات التي أقمناها في الدنيا، فما كان دافعها الهوى والعصيان فإنها سريعة الزوال وتعود على صاحبها بالحسرة والوبال، وما كان أساسها التقوى فإنها في الآخرة تكون أشد وأقوى.



العدالة شرط لقيام العلاقات الاجتماعية وتكاملها

يجب أن نعلم أن من أعظم القيم التي أكد عليها القرآن الكريم وجعلها معياراً لبقاء الأمم أو زوالها هي قيمة (العدالة الاجتماعية) إذ يستحيل وجود مجتمع إنساني مترابط ومتماسك تسوده المحبة والوئام، وتقوم العلاقات الاجتماعية بين أبنائه على (التكامل) لا (التآكل)، ويجب الرعية ولاة أمرهم والعكس، ويجب أبناء المجتمع بعضهم بعضاً إلا مع وجود العدالة الاجتماعية، تلك العدالة التي تحقق الأمن والاستقرار، وتكون سبباً في ازدهار والإعمار، عدالة تشمل جميع أبناء المجتمع دون تحيز أو تمييز تحت أي مسمى كائناً من كان، ولذا سنذكر هنا بعض الآيات القرآنية كنماذج ونصوص دستورية لا تحمل اللبس أو التأويل بل تؤكد على أهمية هذه القيمة كشرط أساسي لقيام العلاقات الاجتماعية، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨] وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوُّوا أَوْ نَعَرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥] وقوله: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨]

وفي شأن العدالة الأسرية أخبرنا الله - سبحانه وتعالى - عن السبب الذي دفع إخوة يوسف عليه السلام للإقدام على ما أقدموا عليه بقوله: ﴿إِذْ قَالُوا لْيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا أُمِينَا مِنَّا وَغَحْنُ عُصْبَةً إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [يوسف: ٨-٩] وفي شأن الهلاك العام للقرى يقول: ﴿وَمَا كُنَّا

مُهْلِكِي الْفُرَى إِلَّا وَأَهْلَهَا ظَالِمُونَ ﴿٥٩﴾ [القصص: ٥٩]. وهناك عشرات الآيات التي تبين أهمية العدل كقيمة اجتماعية نكتفي بما ذكرناه خوف الإطالة وعليه فيمكن استنباط بعض الهدايات الاجتماعية من هذه الآيات في النقاط التالية:

أولاً: استخدام القرآن لفظ (الناس) في قوله: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ﴾ [النساء: ٥٨]؛ لأن لفظ (الناس) اسم جنس يشمل جميع البشر وليس وصفاً خاصاً ببعضهم دون البعض، والعدل قيمة اجتماعية إسلامية مطلوب إقامتها بين جميع البشر دون استثناء، بل حتى مع النفس وأقرب المقربين، وهو ما يؤكد ويعزز مفهوم المساواة بين الناس. ثانياً: الحكم بين الناس بالعدل من أهم عوامل بناء الثقة والتي تعد الأساس لأي علاقة يمكن أن تنشأ عنها.

ثالثاً: الوعظ بالعدل هو أفضل أنواع الوعظ لكونه يشمل المصالح الخاصة والعامة الدنيوية والأخروية.

رابعاً: إقامة العدل في الأرض هو أخصر الطرق وأقربها إلى تحقيق التقوى.

خامساً: ينبغي للمؤمن ألا يسمح لأي نوع من أنواع الكراهية أن تؤثر على نفسيته في إقامة العدل حتى لو كان خصمه من ألد أعدائه.

سادساً: ضرورة تنصيب حاكم عادل يحفظ للناس حقوقهم، ويصون لهم كرامتهم، وألا تحولت الحياة إلى دوامة من الصراع لا تنتهي، وقامت العلاقات والمعاملات بين الناس على الأنانية والاستغلال.

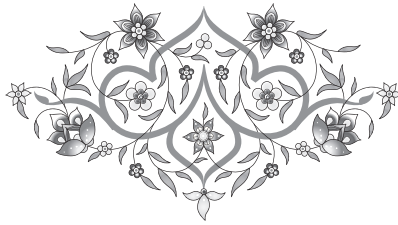
سابعاً: الخطاب للمؤمنين جميعاً أن يكونوا قوامين بالقسط فيه إشارة إلى أن إقامة العدل ليست خاصة بفئة معينة من الناس، وإنما هي

مطلوبة من الجميع في أحكامهم، وسلوكياتهم، وتصرفاتهم، وحبهم وبغضهم، وكل شؤون حياتهم ينبغي أن تكون قائمة وفق ميزان العدل والإنصاف، ذلك الميزان الذي به تستقيم الحياة وتتوطد العلاقات وتخف العداوات، ولهذا يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ [الأعراف: ٨٥] وقد ذكرت في ثلاثة مواضع هذا أحدها والموضع الثاني في هود برقم [٨٥]، والموضع الثالث في الشعراء برقم [١٨٣] والبخس لأشياء الناس منهي عنه لكل أنواع البخس المادية والمعنوية، ومن ذلك بخس الاعتراف بفضلهم ومكانتهم ونحو ذلك، وكل ذلك بلا شك يؤثر على العلاقات الاجتماعية، والعدل في مثل هذه الأمور مطلوب من الجميع حتى مع أعدائهم؛ لأن فعله في مقدورهم جميعاً، وهو تجسيد لقيم القرآن الكريم التي يدعوا إليها أتباعه.

إن كثيراً من أسباب الفرقة اليوم بين المسلمين أنفسهم أفراد وجماعات وأحزاب ودول هي بسبب البخس الذي صار منهجاً لدى الكثير من الناس -للأسف-، حيث يتعمد البعض غمط محاسن الآخرين وتضخيم مساوئهم والتشنيع عليهم، وهو ما يؤدي إلى تصدع العلاقات، وتمزيق النسيج الاجتماعي، وإيغال الصدور تجاه المسلمين بعضهم لبعض حكماً ومحكومين، مع أن أكثر من يمارس ذلك للأسف قد يكون من أهل العلم والصلاح، وربما ممن يحفظ القرآن وكثير من كتب السنة، لكنه الحفظ الذي ينقصه التدبر، أو الحفظ اللاواعي، مع أن منهج القرآن الكريم في تقييم الآخرين هو منهج العدل؛ لذا عندما يذكر علل التدين عند أهل الكتاب فإنه غالباً ما يصدرها بقوله: (ومنهم)، أو (ومن أهل الكتاب) بل أحياناً يشيد بهم ويمتدح ما فيهم من الخير.

ثامناً: إن تمييز بعض الأبناء على بعض من قبل آبائهم وعدم العدل بينهم حتى في مجرد الحب والمشاعر سبب لزرع العدوات والأحقاد في صدورهم، وقد يدفعهم ذلك لارتكاب جرائم بحق بعضهم، تصل أحياناً حد القتل أو الاخفاء القسري.

تاسعاً: الظلم بكافة أشكاله وأنواعه مؤذن بهلاك الأبدان وخراب العمران.



إرساء مبدأ التكافل الاجتماعي بين أبناء المجتمع

التكافل الاجتماعي هو الصورة المجسدة والحقيقية لحسن العلاقات الاجتماعية التي دعا إليها القرآن الكريم، إذ العلاقات الاجتماعية ليست مجرد لقاءات للتعارف وقضاء وقت ممتع في الفكاهة والمرح، ولا مجرد ابتسامات مصطنعة تحاول امتصاص البؤس والعناء لدى كثير من أبناء المجتمع، بل هي تعاون وتآزر، وتكاتف وتناصر، بذل بلا من، وعطاء بلا حدود، والتكافل الاجتماعي من وسائل البر والتقوى، ومن أعظم ما يزيد في تعميق العلاقات والروابط الاجتماعية.

يقول سيد قطب رحمه الله: «إن التكافل الاجتماعي هو قاعدة المجتمع الإسلامي. والجماعة المسلمة مكلفة أن ترعى مصالح الضعفاء فيها.

والآيات التي تدرج تحت هذا المبدأ كثيرة جدًا سنكتفي بذكر نماذج فقط كي نستخلص منها بعض الهدايات القرآنية التي تعمق العلاقات الاجتماعية من ذلك: قوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ﴾ [البقرة: ١٧٧]. وقوله تعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء: ٣٦]. وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكَتُمْ مَفَاتِحَهُ أَوْ

صَدِيقَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ﴿٦١﴾ [النور: ٦١]
 ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْإِيمَانِ ﴿٦٢﴾ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ﴿٦٣﴾ وَلَا
 يُخِصُّ عَلَى طَعَامِ الْمُسْكِينِ ﴿٦٤﴾﴾ [الماعون: ١-٣].

فمن الهدايات الاجتماعية التي يمكن أن نستخلصها من هذه الآيات ما يلي:

أولاً: التكافل الاجتماعي في إعطاء المال لذوي القربى واليتامى والمساكين ونحوهم من المحتاجين من أعظم دلائل البر العملية.

ثانياً: الأقربون أولى بالمعروف والبر والإحسان ثم من كان نفعه أعم كان أجره أعظم، هذا هو الهدي القرآني الذي يريد أن يربي أتباعه عليه غير أن مما يحز في النفس أن تجد من ذوي الأرحام والأقرباء من لا يعطف بعضهم على بعض، ولا يتفقدون أحوالهم أو يبادرون بالإحسان إليهم، وهذا مما يزرع العداوة ويعمق البغضاء، ويضعف الروابط الاجتماعية في أضيق الدوائر وأشدّها أهمية.

ثالثاً: رفع الحرج عن الأكل والشرب من بيوت الأهل والأقارب والأصدقاء كون ذلك مدعاة لمزيد من المحبة والألفة، وهو مما يقوى الروابط الاجتماعية ويزيد في المحبة والانسجام.

رابعاً: الإحسان إلى الناس بمختلف شرائحهم من أهم وسائل تقوية الروابط الاجتماعية، فبه تزداد المجتمعات تماسكاً، وتنتزع الأحقاد والعداوات من القلوب، وما أجمل قول الشاعر:

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم فطالما استعبد الإنسان إحسان

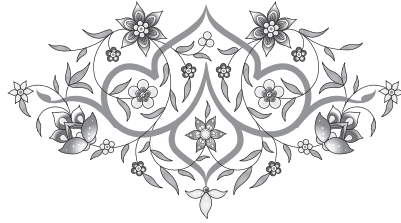
وفي مقدمة من ينبغي أن يشملهم الإحسان (اليتامى) لدرجة أن القرآن جعل علامة التكذيب بيوم الدين، دع اليتيم، أي رده بعنف وعدم

الإحسان إليه، والمشاهد اليوم أن كثيرًا من اليتامى -والحمد لله- وجد من يتولى رعايتهم وكفالتهم سواء أفرادًا أو مؤسسات وجمعيات، بل بعض الأيتام قد يتحسن وضعهم المادي بعد فقد من يعولهم ويصير حالهم أفضل مما كانوا عليه، ولعل من ضمن الأسباب في ذلك أن المجتمع ينظر إلى أن الإحسان لليتيم من أسباب مرافقة النبي ﷺ في الجنة، فضلًا عن الآيات القرآنية التي تحث على الإحسان إليهم، فيصير معظم أبناء المجتمع أباً لذلك اليتيم، وهذه إحدى مزايا التكافل الاجتماعي في المجتمع الإسلامي، والتي ستكون بلا شك من أهم وسائل تقوية الصلات والعلاقات الاجتماعية.

خامسًا: في الآيات السابقة التأكيد على أهمية الرعاية الاجتماعية وأن ذلك جزءٌ أساسي من تعاليم الدين وقيمه، ومعياريًا للتصديق بيوم الدين.

سادسًا: أهمية التكافل والتضامن الاجتماعي لتقوية أواصر الروابط والعلاقات بين الأفراد والأسر والمجتمعات.

سابعًا: الإيمان الحق ليس مجرد مظاهر وشعائر فقط، بل هو قيم ومبادئ ينعكس أثره في سلوك أتباعه وينعم بالخير كل أبنائه.



التأكيد على أهمية الوفاء بالعهود والمواثيق

من القيم الاجتماعية التي أكد عليها القرآن ودعا أتباعه والمؤمنين به إلى التحلي بها، هي الوفاء بالعهود والمواثيق، ليس بين المسلمين فحسب بل بينهم وبين غيرهم أيضاً، لما لهذه القيمة الاجتماعية من الأهمية البالغة في تقوية الثقة بين أبناء المجتمع، وإبراز محاسن الدين وجمال الإسلام، وإظهار الصورة المشرقة للمؤمن المثالي الذي إذا قال قولاً أو وعد وعداً التزم به ووفى بوعده، بعيداً عن حسابات اللف والدوران، لذا فهو لا يعد إلا بما يستطيع أن يفي به، والآيات القرآنية في هذا الخلق الاجتماعي كثيرة نكتفي بذكر أمثلة منها مع الإشارة لما تضمنتها من الهدايات القرآنية ومن تلك الآيات قوله تعالى:

﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَأَنَّى السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧] وقوله: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١] وقوله: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً﴾ [الإسراء: ٣٤] وفي مراعاة المودة بين الزوجين وحفظ المواثيق حتى بعد الانفصال يقول: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [النساء: ٢١] وقال في شأن بني إسرائيل وهو تحذير للمؤمنين بمفهوم الخطاب: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ [المائدة: ١٣] وقال في شأن العهود بين الجماعة المؤمنة وغيرها: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ

يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ [التوبة: ٤] وغيرها من النصوص التي تؤكد على هذه القيمة العظيمة، وعليه فيمكن أن نستخلص بعض الهدايات الاجتماعية في النقاط التالية:

أولاً: الوفاء بالعهود والمواثيق من أعمال البر العظيمة التي يحبها الله ورسوله.

ثانياً: وجوب الوفاء بالعهود والالتزامات ما لم يتضمن الوفاء بها فعل حرام أو ترك واجب.

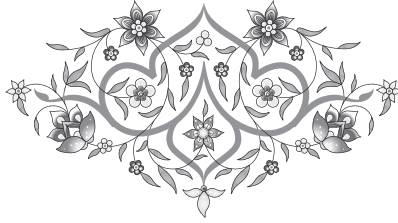
ثالثاً: العهد والميثاق ليس هو مجرد التزام أخلاقي أو قانوني فقط بل هو مسؤولية دينية يسأل عنه المرء بين يدي ربه - سبحانه وتعالى -.

رابعاً: الأسرار والأمانات نوع من أنواع العهود والعقود التي يجب حفظها كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ [المؤمنون: ٨].

خامساً: للصحة والعشرة عهد وحرمة ينبغي مراعاتها مهما حصل من الخلاف ولو وصل إلى درجة الهجر والقطيعة والفراق. ﴿وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧].

سادساً: من الأسباب الموجبة للعنة الله وطبعه على قلوب العباد نقضهم للعهود والمواثيق؛ لكون ذلك يؤدي إلى نزع الثقة بين الناس، فتبنى علاقتهم على الشك والريبة وسوء الظن، وهذه بلا شك تضعف الروابط الاجتماعية، وتفسد المصالح المتبادلة بين البشر.

سابعاً: الوفاء بالعهد والميثاق يجب مع جميع البشر مسلمهم وكافرهم،
صالحهم وطالحهم، ما لم يترتب عليه ضرر محض بالمسلمين فيجب حينها
ابلاغهم بانقضاء العهد وبطلانه، قال الله تعالى: ﴿وَمَا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ
خِيَانَةً فَأَنْتُمْ عَلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ [الأنفال: ٥٨].



التأكيد على خلق الإحسان

حث القرآن الكريم المسلمين على انتقاء الأحسن في معاملاتهم الحياتية قولاً وفِعْلاً، وإشاعته بين الناس، لما لهذا الخلق من الأثر العظيم في التلاحم الاجتماعي، والرقى الأدبي، وتقوية أواصر المودة والأخوة بين أبناء المجتمع الواحد، واستخراج أسباب العداوة والبغضاء من القلوب، حتى يصير العدو كأنه ولي حميم، وهذا يؤدي إلى المثالية التي تسعى الشريعة الإسلامية إلى إيجادها في المجتمع المستنير بقيم القرآن الكريم، والآيات القرآنية في هذا الخلق كثيرة يمكن تصنيفها واستخراج الهدايات القرآنية منها على النحو التالي:

أولاً: الإحسان إلى الوالدين، وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسِنًا إِنَّمَا يُبَلِّغُنَّ عَنْكَ الْكِبَرَ أَخْذُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفٍ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [الإسراء: ٢٣].

والهداية التي تفيدها هذه الآية هي وجوب الإحسان إلى الوالدين قولاً وفِعْلاً، حيث جاء الأمر بذلك معطوفاً على عبادة الله وحده بحرف العطف الذي يفيد الترتيب والتعقيب، وذلك لبيان أهمية الإحسان إلى الوالدين وبرهما، خصوصاً عند كبر سنهما لكونهما أكثر حاجة للرعاية والاهتمام.

ومن الإحسان إليهم ألا ترفع صوتك بحضرتهم، أو تجعل حجتك أقوى من حجتهم، أو تهجرهما أو أحدهما ولو وقع عليك ظلم منهما، بل ترفق بهما، ودارءهما، والتمس رضاهما، فعبر رضاهما تنال رضا الله، وبالإحسان إليهما يحسن الله إليك.

ثانيًا: الإحسان إلى الأبناء والأهل، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحریم: ٦].

والهداية التي تفيدها هذه الآية هي وجوب الإحسان إلى الأبناء وذلك بأخذهم إلى طريق الهداية، وتجنبهم كل فعل أو قول قبيح تكون عاقبته النار، فمن لم يقيم بحق الرعاية والتربية لأبنائه، وسوف يُسأل يوم القيامة عن تقصيره وتفريطه نحوهم.

ثالثًا: الإحسان إلى الأقرباء والأرحام، قال تعالى: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ﴾ [النساء: ٣٦]. وقال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ [النساء: ١]. وقال: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ [٣٣] أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ﴾ [٣٣] [محمد: ٢٢-٢٣].

والهداية التي تتضمنها هذه النصوص هي التأكيد على أهمية الإحسان إلى الأقرباء والأرحام، كونهم أولى الناس بذلك، ولذا جعل الله الرحم في سياق ذكره المعبر عنه باسمه الأعظم كما في الآية الأولى من سورة النساء، كما أنه لعن قاطع رحمه؛ لأنه ترك الإحسان إلى رحمه، والإحسان لا يعني المكافأة وهي مقابلة المعروف بالمعروف بل يعني بذل المعروف حتى في حال الإساءة إليك، كما قال ﷺ «ليس الواصل بالمُكافئ، وَلَكِنْ الْوَاصِلُ الَّذِي إِذَا قُطِعَتْ رَحْمَةُ وَصَلَهَا» أخرجه البخاري.

فالإحسان إلى الأقارب والأرحام تعني أن تصل من قطعك، وتعفو عمن ظلمك، وتحسن إلى من أساء إليك، وأن تعطيهم مما عندك هدية لا صدقة، وإحسانًا لا تفضل فيه أو من، وأن تبدأهم بالعطاء دون أن تضطرهم للسؤال. وهذا مما يزيد أوصار المحبة والمودة ويقوي الروابط الاجتماعية بين أبناء الأسرة الواحدة.

رابعًا: الإحسان بين الزوجين، قال تعالى: ﴿فَإِمْسَاكُ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحُ بِإِحْسَنٍ﴾ [البقرة: ٢٢٩]..

والهدايات التي تتضمنها هذه الآية هي:

أن الإحسان مطلوب في كل الأحوال سواءً في حال بقاء العلاقة الزوجية، أو في حال الطلاق، فليس مقتصرًا على حالة دون أخرى.

تبين أهمية قيام العلاقات الزوجية ومثلها كل العلاقات على الإحسان، ففي حال انتهاء أي علاقة من العلاقات ينبغي عدم انتهاء الإحسان، وعدم الفجور في الخصومة.

خامسًا: الإحسان إلى عموم الخلق، قال تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣]. والهدايات القرآنية التي تضمنتها هذه الآية هي:

تعزيز الاحترام المتبادل ووجهات النظر المتعددة؛ لأن مخاطبة الناس بالكلام الحسن يعزز من احترامهم وتقديرهم، بغض النظر عن خلفياتهم، أو معتقداتهم، أو انتماءاتهم، أو أي اعتبارات أخرى.

نشر المحبة والوئام وتضييق العداوة والخصام، إذا أن التعامل بالأحسن مع عموم الخلق ينشر المحبة والسلام، ويضيّق دائرة الخلاف، ويساعد على تقريب وجهات النظر.

التواضع في الخطاب وعدم التعالي وادعاء امتلاك الحقيقة المطلقة وتسفيه رأي الآخرين، وهذه الأمور بلا شك تساهم بشكل فعال في تقوية الروابط الاجتماعية، وإيجاد البيئة الخصبة لإيجاد مجتمع مثالي، متسامح ومتعايش تتجسد فيه قيم الإسلام السمحة.

إرساء مبدأ العفو والصفح

لا توجد علاقات اجتماعية مهما كانت مثالية دون أن يشوبها الخطأ والتجاوز بل والظلم أحياناً، سواءً من الناحية المادية أو الناحية المعنوية، والقرآن الكريم كمنهج رباني صادر عن يعلم ما خلق وهو اللطيف الخبير، ينظم حياة المسلمين من كل النواحي والجوانب، بل من مقاصد القرآن العظيمة هي ترسيخ وحدة المسلمين وترابطهم وبقاء العلاقات الاجتماعية بينهم قائمة، ولذا تضمن القرآن الكريم الإكسير الفعّال لعلاج كثير من تلك الأخطاء التي قد تحصل بين الجماعات الإسلامية، أو حتى بينهم وبين غيرهم والتي قد تؤدي مع نزغ الشيطان لإضعاف الروابط الاجتماعية، وربما قطع جسور الأخوة، وزرع بذور الفتنة والشقاق، ولذا جاءت آيات كثيرة تعلى من قيمة العفو والصفح والإحسان، وترتب على ذلك الأجور العظيمة، والآثار الإيجابية في الدنيا والآخرة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]، وقوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، يقول محمد رشيد رضا رحمته الله: «لأن الفظاظة هي الشراسة والخشونة في المعاشرة، وهي القسوة والغلظة، وهما من الأخلاق المنفرة للناس لا يصبرون على معاشرة صاحبهما وإن كثرت فضائله، ورجيت فواضله، بل يتفرقون ويذهبون من حوله ويتركونه وشأنه لا يبالون ما يفوتهم من منافع الإقبال عليه، والتخلق حواليه».

ويقول تعالى أيضاً: ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ

أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ [فصلت: ٣٤]، ويقول تعالى: ﴿وَجَزَّوْاْ سَيِّئَةً سَيِّئَةً مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠] ثم قال: ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣] ومن الهدايات الاجتماعية التي يمكن أن نستخلصها من هذه الآيات ما يلي:

أولاً: الإحسان القولي والفعلی للناس يسهم في نشر المحبة والمودة ويقوي الروابط الاجتماعية.

ثانياً: حدة الطبع، وقسوة اللفظ، وجفاف المشاعر من أعظم أسباب التمزق والاختلاف وتقطيع أواصر الروابط الاجتماعية سواءً على المستوى الأسري أو على مستوى المجتمع ككل.

ثالثاً: من أهم خصائص الرجل الاجتماعي الناجح في المحافظة على علاقاته الاجتماعية وتوسيع نطاقها هي ليونة تعامله مع من حوله.

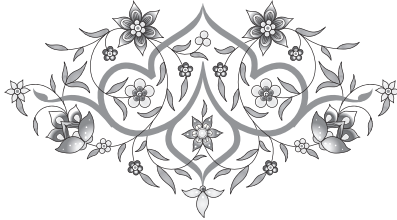
رابعاً: التحلي بالعتفو والصفح والإحسان وكنم الغيظ والسيطرة على الغضب وبواعثه يعزز التماسك الاجتماعي، ويفوت الفرص على الشيطان والأعداء في زرع بذور العداوة والشقاق بين أبناء المجتمع الواحد.

خامساً: مقابلة السيئة بالحسنة يمكن أن تكون سبباً في تغيير العلاقة الاجتماعية من علاقة عداوة وبغضاء إلى علاقة محبة وصفاء، والتعامل بهذا الخلق الراقى يساهم في نشر الإيجابية داخل المجتمع، ويخلق مناخاً رائعاً من الاحترام المتبادل، ويجنب المجتمع من ويلات الخلاف والتي قد تعصف به إلى دائرة الاحتراب، بسبب رد السيئة بمثلها في أمور كان يمكن تجاهلها بل مقابلتها بما هو أحسن. وعلى الرغم من أن لفظة أحسن في قوله تعالى: ﴿أَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [فصلت: ٣٤]

تختلف من حادثة لأخرى كلاً بحسبها إلا أن الأصل العام هو أن تقابل
الإساءة بالإحسان؛ لأن الإساءة كالنار والإحسان كالماء.

سادساً: يسهم العفو والصفح والإحسان في تحقيق الاستقرار الاجتماعي
ويعمل على تجنب المجتمع الفوضى الناتجة عن حب الانتقام وإرضاء
نوازع النفس.

سابعاً: في إخبار الله - سبحانه وتعالى - عن محبته لمن اتصف بتلك
الصفات إغراء وتحفيز للتخلي بها كونها ليست ذات أثر اجتماعي
فقط بل هي - أيضاً - سبب لنيل محبة الله ورضوانه.



النهي عن كل ما يفتت النسيج الاجتماعي

تضمن القرآن الكريم العديد من التعليمات المشتملة على الأوامر والنواهي ذات البعد الوقائي والتي يؤدي الالتزام بها إلى تحصين الروابط الاجتماعية من التصدع والعداء، ومن تلك التعليمات القرآنية نهيه عن الهمز واللمز والغيبة والنميمة والتجسس وسوء الظن، وقد كانت سورة الحجرات أو سورة الأخلاق والآداب كما يسميها البعض هي السورة القرآنية الفريدة التي تضمنت كل تلك التعليمات مجمعة في مكان واحد، حيث صُدّرت تلك التوجيهات بالنداء (يا أيها) ووصف المنادى بالإيمان (آمنوا) كونهم المعنيين بالامتثال، ثم تنوعت تلك التعليمات والارشادات بين الأمر والنهي والإخبار، مع ذكر بعض النتائج الوخيمة المترتبة على عدم الالتزام والاتباع لتلك التعليمات؛ ليكون ذلك من الأمور المحفزة على الامتثال، كما جاء الحديث فيها عن كثير من الآداب الاجتماعية العامة المتصلة بعلاقات الناس بعضهم مع بعض، لما فيها من تقرير لفضيلة وذر لرديلة، ولإقامة دعائم المجتمع الفاضل، فأمرت المؤمنين بالثبّت من الأخبار وعدم الإصغاء للإشاعات التي يروجها الفسّاق ويتناقلونها، ثم أبانت طريق فض المنازعات الداخلية بين فئتين متقاتلتين من المؤمنين وهو الإصلاح، وقاتل الفئة الباغية (البغاة) حتى تعود لصف الجماعة الواحدة، ثم أعلنت قيام رابطة الإخاء والود بين المؤمنين، وحذرت من تفكك الجماعة المؤمنة وإثارة النزاع بين أفرادها، وتوليد الأحقاد والضغائن والكراهية بسبب السخرية والهمز واللمز والتنازع بالألقاب، سواء بين الرجال أو النساء، أو بسبب سوء الظن بالمسلم والتجسس (تتبع العورات) والغيبة والنميمة.

ومن تلك النصوص القرآنية قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْحَبُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦]. إلى قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ [الحجرات: ١٢].

وعليه فيمكن استخلاص بعض الهدايات الاجتماعية من هذه النصوص القرآنية التي تضمنتها سورة الحجرات في النقاط التالية:

أولاً: أهمية التثبت من الأخبار قبل نشرها أو إصدار الأحكام على أصحابها، يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ وقال رسول الله ﷺ: «كَفَى بِالْمَرْءِ كَذِبًا أَنْ يَحْدِثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ» أخرجه مسلم. فكم من الأخبار الكاذبة والشائعات المغرضة التي عملت في المجتمع ما يعملها السحربين الزوجين، فزرعت الضغائن والأحقاد بين أبناء المجتمع أفرادًا وجماعات وحكامًا ومحكومين، وقد ساهمت اليوم كثيرٌ من القنوات الإعلامية ومواقع التواصل الاجتماعي في ذلك إلى حد كبير، حيث سيتصدر فيها -غالبًا- للحديث عن قضايا حساسة ومصيرية من لا يفقه شيء من فقه المآلات، حتى أصيب المجتمع بالوهن والضعف، وصارت مجتمعاتنا أشد وهنًا من بيت العنكبوت، فقطعت وشائج القرابة، والمحبة والمودة، بين الأفراد والجماعات والدول، وصارت العلاقة هي علاقة هجر وتربص وعداء، وقلٌ من يسلم من ذلك ممن يفقه القرآن ويتلمس هداياته.

ثانيًا: أهمية الإسراع في تحقيق الصلح بين المتخاصمين، ونزع فتيل الشر قبل أن تشتد ناره، ويعلو غباره، وهذه هي الإيجابية التي يربى القرآن عليها أتباعه، إذ لا ينبغي الحياد في مثل هذه الحالة، بل المطلوب

هو المبادرة والإسراع في تقريب وجهات النظر؛ لأن الخلاف شر وقد يعم شره المجتمع بأسره، والمؤمنون كلهم كالجسد الواحد، ولا يمكن لعاقل أن يرى الداء في عضو من أعضائه دون أن يبادر في علاجه وإصلاحه.

ثالثًا: النهي عن السخرية والاستهزاء والتنابز بالألقاب وكل ما له أثر سيء على العلاقات الاجتماعية، مع بيان أن الواقع قد يكون بخلاف ذلك، إذ يحتمل أن يكون المُستهزئُ به خيرًا وأفضل من المُستهزئِ عند الله في حقيقة الأمر الواقع، كما قال نوح عليه السلام لقومه في قوله تعالى: ﴿إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ [هود: ٣٨].

وقد أفرد النساء بالذكر هنا فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ مع أنهن جزء من القوم لأمرين:

الأول: لبيان خطورة هذا الأمر وضرورة الانتهاء عنه من كلا الجنسين.

والثاني: لكون النساء أكثر وقوعًا فيه من الرجال، ولذا أفردهن بالذكر، وهذا بالنسبة للمجموع الكلي مقابل المجموع الكلي، وقد يوجد في الأفراد منهم على خلاف ذلك.

رابعًا: التعبير عن لَمَزَ الآخرين بأنه لَمَزَ للنفس فيه لفته بديعة تبين مدى ترابط المجتمع المسلم بعضه ببعض حتى يصير المجتمع في مجموعه الكلي كنفس واحدة، فكأن الذي يلْمِز أخاه إنما يلْمِز نفسه، وقبيح أن يلْمِز الإنسان نفسه فالعاقل لا يفعل ذلك.

هذا جانب والجانب الآخر أن اللْمِز قد يدور في نفس الإنسان دون أن يُحْدِثَ به غيره، بخلاف الغيبة التي لا تسمى غيبةً إلا إذا حدث بها غيره. ولهذا قال هنا: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [الحجرات: ١١]، وقال في الغيبة

﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ [الحجرات: ١٢].

خامسًا: في تذييل الآية بقوله: ﴿يُبْسِ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيْمَنِ﴾ تقبيح لهذه الأفعال الذميمة، وتعريض قوي بأن ما نهوا عنه إلا لكونه فسوقًا وظلمًا، وعليه فيجب على المسلم ألا ينادي أخاه بما يكرهه من وصف أو لقب جادًا كان أو مازحًا، قال الألوسي: ”اتفق العلماء على تحريم تلقيب الإنسان بما يكره، سواء كان صفة له أم لأبيه أم لأمه أم لغيرهما“.

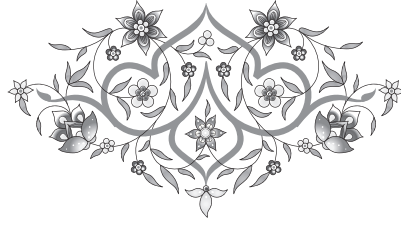
أمَّا ما غلب عليه من الألقاب، وصار هو اسم الشهرة، ولم يتأذى به المُنَادى كالأعرج، والأعمش، والقفال ونحوها فلا بأس به، وكذا الألقاب الحسنة والكنى التي يحب الإنسان أن ينادى بها فهي غير داخلية في وصف التنازع بالألقاب الذي يشمل وصف الفسوق.

سادسًا: ضرورة اجتناب الظنون السيئة، لتطهر القلوب كما تطهرت الألسنة من الهمز واللمز ونحوه، فللفرد في المجتمع المسلم حرمة وكرامة ينبغي أن لا تنتهك بظن سيء ليس له أي دليل.

يقول سيد قطب رحمه الله: «إن هذا النص يقيم مبدأ في التعامل، وسياجأ حول حقوق الناس الذين يعيشون في مجتمعه النظيف، فلا يؤخذون بظنة، ولا يحاكمون بريئة ولا يصبح الظن أساسًا لمحاكمتهم، بل لا يصح أن يكون أساسًا للتحقيق معهم، ولا للتحقيق حولهم. والرسول ﷺ يقول: «إِذَا ظَنَنْتَ فَلَا تُحَقِّقْ» المعجم الكبير، الطبراني

ومعنى هذا أن يظل الناس أبرياء، مصونة حقوقهم، وحياتهم، واعتبارهم حتى يتبين بوضوح أنهم ارتكبوا ما يؤخذون عليه، ولا يكفي الظن بهم لتعقبهم بغية التحقق من هذا الظن الذي دار

حولهم! فأى مدى من صيانة كرامة الناس وحياتهم وحقوقهم واعتبارهم ينتهي إليه هذا النص! وأين أقصى ما تتعجب به أحسن البلاد ديمقراطية وحرية وصيانة لحقوق الإنسان فيها من هذا المدى الذي هتف به القرآن الكريم للذين آمنوا، وقام عليه المجتمع الإسلامي فعلاً، وحققه في واقع الحياة، بعد أن حققه في واقع الضمير؟“





أقوم الهدايات السياسية

هدايات الحرية والاستقامة الاعتصام. ❖

هدايات العدل. ❖

هدايات الانضباط والتدرج. ❖

— أ. حمود العواضي —

توطئة:

أنزل الله القرآن الكريم بمنهج شامل ومتوازن يعالج قضايا الإنسان كافة، ليكون مرجعاً ربانياً لكل نظم الحياة، ومنها النظام السياسي. لقد أرسى القرآن أسس السياسة الإسلامية، ووضع تصوراً متكاملًا للحكم قائماً على التوحيد والعدل والحرية والمساواة. فالسياسة في الإسلام ليست منفصلة عن مقاصد الدين الكبرى، إذ تهدف إلى تحقيق الانسجام بين الإنسان وفطرته، وبين الإنسان ومجتمعه وبينه ونظام الكون المحكم الذي يخضع لسنن الله - سبحانه وتعالى -.

إن الحديث عن السياسة ليس مجرد بحث في السلطة أو النفوذ، بل هو استدعاء لفهم أعمق لمعناها في ميزان الهدي الإلهي، فالسياسة، كما يصورها القرآن، عبادة تقوم على ركنين لا ينفصلان: الوفاء بالعقود والأمانة في الحكم وليست السياسة لعبة يُتقنها المتنافسون على الكراسي، بل هي ميدان تُختبر فيه قلوب الرجال وأمانة المسؤولين، إذ تُبنى الدول على صدق العهود، قال تعالى:

لنظام الله وحاكميته المطلقة ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [الشورى: ٤] وإذا كان هو الخالق الذي لا شريك له ولا معبود بحق سواه، فإن كل مخلوق في السموات والأرض خاضع لأحكامه وتشريعته، ومن خرج عن طوعه واتخذ من دون الله سبحانه شركاء يشرعون له من دون الله سبحانه فقد شذ عن إرادة الخضوع لنظام الله، إنها آية تعلل التشدد في هذا الجانب فما دام ملكه يشمل كل ما في السموات والأرض فلا يتقن وضع النظام لهذا الكون إلا المبدع له ولا وضع قوانين الخلق إلا الخالق، يقول تعالى: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَّقَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ ۗ إِنَّ

اللَّهُ هُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٠﴾ [الشورى: ٥٠]، ومن يخرق هذا القانون الإلهي إنما يناقض كل شئ في الكون، إن الاستهزاء بغير الله سبحانه والشرك به تصرف لا ينسجم مع نظام الخلق ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ﴾ فالسّموات تفرع وتغضب من شرك الناس وتخشى غضب الله سبحانه، والملائكة يسبحون بالحمد ويطلبون المغفرة لمن جهل هذه الحقائق، ولكن الإنسان كان ظلوما جهولا بها.

هذا التسبيح الكوني برهان الحاكمية المطلقة لله، فالآية تتحدث عن تسبيح الملائكة واستغفارهم ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥٠].

وهذه الرسالة بالاستعراض بهذا الجلال لها علاقة بمفهوم الحاكمية لله، مفادها أن النظام الكوني بأسره يمضي بسنن لتحقيق العدالة بميزان الحزم والرحمة.

ولكي يتعلم الإنسان كمستخلف على الأرض ويدرك بأنه لن يكون كذلك بدون محاسبة، فهو جزء من نظام شامل، وهذا يتطلب منه الالتزام بالعدل والعمل على الإصلاح بما يتماشى مع هذه السنن وموازينها.

٢- فهم أمانة المسؤولية:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنْ آسْتَجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦] السياسة ليست تسلطاً ولا استبداداً، بل هي عقد اجتماعي يحمل الحاكم مسؤولية إقامة العدل وتحقيق الصالح العام بأمانة وتقوى قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ

سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ [النساء: ٥٨] فكل مواثيق الحكم، من دساتير وقوانين، هي جزء من هذا العقد الإنساني، والقرآن يهدي ويوضح حدود المسؤوليات السياسية، قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [النحل: ٩١].

الآية تبين أن الوفاء بالمسؤولية لإصلاح حياة الناس من أوجب الواجبات، ومن أهم الأمانات قال الله تعالى: ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾، والله هو الشاهد والمراقب لكل من تولى الأمر وألزم نفسه القيام بهذه الأمانة، وهو الذي حدد المسؤوليات واتاح لكل فرد تحمل مسؤولية يطيقها ويقدر على أدائها، فلا يسعى لتكليف نفسه ما لا يطيق، في الجانب العام، بينما هناك مسؤوليات أخرى في إطار المجتمع، وهذا ما يتوجب أن يعرفه الحاكم والمحكوم في المجتمع المسلم، ويُتوقع منهم أن يعرفوا أنهم سيكسبون أو سيخسرون في هذا الجانب، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجُمُعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧].

فمن أراد الهداية عليه أن يتعلم ويبذل الجهد في البحث عن سبلها بقلب نقي وعقل مستنير، فالعلم بالحكم والمقاصد القرآنية، وبالسنن الكونية الربانية، والإيمان واليقين بأن حساب الله العدل قادم لا محالة وأن الجزاء هو ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ سيجعل كل حريص على أداء الأمانة مجتهد في تحصيل كل العلوم التي تؤهله لذلك قال تعالى: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [سبأ: ٦].

٣- فهم ميزان الحزم والرفق:

لقد عرضت آيات سورة الشورى مزيّجاً من صفات الله -عز وجل- المتعلقة بالحاكمة مثل العزة والحكمة والعظمة والغفران والرحمة، وهذه تقدم بُعداً عميقاً للسياسة في القرآن، هذا البُعد يتجسد في التوازن بين الجلال والجمال في التشريع، وبين الشدة والرحمة؛ فالله -سبحانه وتعالى-، بعزته وحكمته، هو الذي يشرّع لعباده، وبغفرانه ورحمته يرفع عنهم الحرج، ويمنحهم فرصة الإصلاح، هذا التوازن يعكس عدالة التشريعات الإلهية في إدارة شؤون الحياة، حيث لا تُفرّق الأحكام بين إنسان وآخر، وتراعي كل الجوانب والظواهر والسنن، فتسير الحياة بنظام محكم.

وهذا التعليم وهذه الهداية في التوازن السياسي لا بد أن يستلهمها المسلم عندما يمارس العمل السياسي والاجتماعي بكل مستوياته وقد استلهم رسول الله ﷺ هذا التوازن في سياسته كما جاء في قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظًا لِّلْقَلْبِ لَآنْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

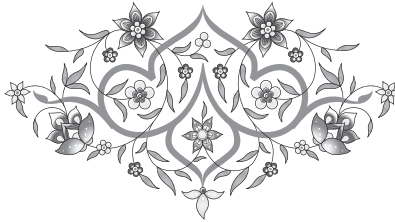
٤- فهم مقاصد القرآن في الإصلاح السياسي

من أبرز الإشارات القرآنية ذات الطابع السياسي، في الآيات السابقة قوله تعالى: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ﴾، وهي إشارة إلى العلاقة الوثيقة بين الظلم والفساد في الأرض، إذ إن الشرك بالله هو أعلى مراتب ظلم الإنسان كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] فالظلم إذا استشرى لا يُفسد الإنسان فحسب، بل يهدد النظام والعمران في كوكب الأرض، ومن هنا تأتي أهمية الإصلاح

السياسي كضرورة وجودية تحمي الإنسان من هذه الآثار السلبية، حيث قال الله في قصة الخلق: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].

والسعي للإصلاح السياسي هو سعي لتحقيق غايتين الأولى: إرضاء الله بتمثل أمره في تحمل أمانة الشهادة وإقامة العدل، والثانية: رفع الظلم والمعاناة وإصلاح حياة الناس لتنتفع عليهم بركات الله ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦].

والسياسة الشرعية في الإسلام هي انعكاس لمقاصد الله سبحانه الكبرى في تحقيق العبودية، وإقامة العدل، وصون كرامة الإنسان، وضمان الانسجام بين الإنسان والنظام الكوني، قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾﴾ [الرحمن: ٧-٨] هذه القواعد لا بد من استيعابها؛ لأنها تقدم نموذجاً فريداً في التأسيس للإصلاح السياسي القائم على الحكمة، والذي يربط بين الدنيا والآخرة، وبين حقوق الإنسان وواجباته، وبين الفرد والمجتمع.



هدايات الحرية والاستقامة والاعتصام

جاءت هدايات القرآن في هذا الجانب للقضاء على الظلم في الأرض، وترسيخ قيم الحرية والترابط، من خلال نور العلم وموازين المساواة، ومن الهدايات في هذا الجانب.

١- هداية مقارعة الطغيان:

يقول الله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ ۚ ﴿٦﴾ إِنَّ رَعَاةَ أَصْنَانٍ ﴿٧﴾﴾ [العلق: ٦-٧] فمع بداية التنزيل يشخص الله مرض الطغيان العضال الذي أصاب الإنسان الطغيان كعلة مهلكة: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ﴾، وفيه إشارة لعموم البشر في سياق التحذير.. ثم يذكر السبب: ﴿أَن رَّعَاهُ أَهْلًا ۚ﴾ [العلق: ٧] الفعل «رأى» في الآية فعل ماضٍ، والهاء ضمير متصل في محل نصب مفعول به أول، يعود على الإنسان نفسه، أي يرى الإنسان نفسه مستغنياً.

وهذا الأسلوب البلاغي الموجز جاء ليبرز الفكرة في أقل عدد من الكلمات، مما يعكس قوة التعبير القرآني، فبدلاً من القول «إذا رأى الإنسان نفسه مستغنياً» اختصر التعبير بـ ﴿أَن رَّعَاهُ أَهْلًا ۚ﴾ ليجمع في كلمة واحدة بين رؤية الإنسان ﴿رَّعَاهُ﴾ ووهمه بالاستغناء ﴿أَهْلًا ۚ﴾. وهذا الأسلوب يوحى بأن رؤية الإنسان نفسه هي أصل المشكلة، إذ أن هذه الرؤية المتهمة بالكمال والكفاية هي التي تقوده إلى الطغيان، والطغيان في القرآن يستخدم لوصف حالة من تجاوز الحدود المرسومة، ويظهر كتعبير عن انفصال الإنسان عن أصله وغاية خلقه، وهذا عكس الإرادة السياسية في الهداية القرآنية التي تهدف لإخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ثم انتقل السياق إلى قول الله:

﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى ١٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّى ٢٠﴾ [العلق: ٩-١٠] وهذه الواقعة التي ذكرها الله تمثل نموذجاً عملياً لتحليل دوافع الطغيان، وهي تهدف لتحفيز العصف الفكري في تحليل القضايا والأحداث السياسية من جميع الجوانب النفسية، والاجتماعية، والاقتصادية، فقوله ﴿أَرَأَيْتَ﴾ تمثل تمريناً على المنهج التجريبي في المعرفة والتحليل واستخدام البراهين في النقاش والحوار وبعد ذلك ربط بين الطاغية الفرد والمنظومة التي تقف خلفه بعد أن استكمل تحليل الفرد الذي يأمر وينهى ويعتقد أنه الأقوى فكان الانتقال إلى المستوى الجماعي: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ٣١﴾ سَدْعُ الزَّبَانِيَةِ ٣٢﴾ [العلق: ١٧-١٨]، والانتقال التفريعي هذا جاء في سياق التحذير حاملاً مزيداً من التصعيد لبيان العجز والضعف على المستويين الفردي والجماعي للطغاة أمام منهج الهداية القرآني في التحرر والإنعتاق من الاستبداد.

كما يظهر الله حقيقة التكامل الرمزي بين (القيادة الفردية) «الناصية» (القيادة الجماعية) «النادي» وكلاهما نسيج واحد.

هذا الربط يكشف إحكام النص القرآني، حيث تتداخل المعاني اللغوية والبلاغية والدلالية لتؤكد العظمة بكل صورها؛ أصبح الخطاب هنا ذا دلالة أوسع؛ لأنه يُبرز تكامل الطغيان ويعكس طبيعة الصراع بين الحق والباطل، ويدمج الفرد الذي طغى مع منظومته التي تحيط به وتدعمه وهو ما يستدعي في الجهة المقابلة اندماج الفرد المؤمن في جماعة المؤمنين لمواجهة الطغيان، وهذا الانتقال له معناه المقاصدي فالقرآن لا يفصل الفرد عن محيطه، بل يربط بينهما ثم جاءت المفاصلة بين الإيمان بعدله والطغيان بجوره وظلمه بقوله تعالى: ﴿كَلَّا لَا تُطَعُّهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ١٩﴾ [العلق: ١٩].

والأمر يحمل في طياته التحذير الشديد ﴿كَلَّا لَا تُطَعُّهُ﴾، والإرشاد اللطيف ﴿وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ١٨﴾، ليمثل خلاصة المنهج الإسلامي، في بناء الإنسان الصالح سياسيا واجتماعيا، الذي يجاهد ضد الهيمنة والطغيان المادي لترسيخ

قيم الإيمان والعدل والنهي عن الطاعة بصيغة المضارع ﴿لَا تُطَعُّهُ﴾ يشير إلى رفض دائم ومستمر لكل طاغية، وكأن هذا التوجيه أمر متجدد وخالد.

٢- هداية الإعداد والتربية والتأهيل:

إن إقامة الدين ومقاومة الطغيان تستدعي جودة البناء وصلابة من يحملون قيمه وموازينه فإن هذه المرحلة تستدعي التركيز على نوعية الرجال قال الله تعالى: ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَتَأُولَىٰ أَلْبَبٌ لَّعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾ [المائدة: ١٠٠].

فالله - سبحانه وتعالى - يُقدِّم قاعدة معيارية واضحة في ميزان البناء وهي أن التقييم لا يعتمد على الكثرة بل على القدرة والنوعية، هذا التوجيه الإلهي يُعلِّم المؤمنين التركيز على الكيفية وليس الكمية، ويحثهم على الالتزام بما هو طيب وصالح، حتى لو كان غير جذاب في أعين الناس: ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ الآية تُبرز خطر الانبهار بالمظاهر السطحية على حساب المبادئ والقيم الحقيقية، وتحمل تحذيراً مباشراً من خداع الكثرة التي قد تُظهر قوة زائفة، بينما قيمتها غير حقيقية، وفي ربط هذا المعيار بالتقوى، تتجلى أهمية هذا التوجيه، خاصة عند المفاضلة السياسية أو الاجتماعية فالتقوى ترجيحاً للأصلح لا للأكثر ولا للمظهر.

أما قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ﴾ فهو إشعار بأن الفلاح الحقيقي، -سواء في الدنيا أو في الآخرة-، لا يتحقق إلا بالالتزام بمعيار الإحسان، والإتقان، إنها رؤية موجزة تُخاطب أولي الألباب، أي أصحاب العقول الناضجة التي تدرك أن البناء الحقيقي لا يقوم على كثرة الأرقام الغثائية، بل على القيم والمبادئ، كما أنها دعوة لتأصيل منهجية التفكير النقدي والمبدئي في مجالات الحكم والسياسة والاجتماع، حيث تُصبح التقوى ركيزة التقييم والتوجيه، لا مجرد أداة وعظية، بل معياراً عملياً للفرز والاختيار بين الأشخاص والسياسات والأحكام وفق مبادئ الإحسان.

٣- هداية الانتقال من الاستجابة إلى الإقامة

وبعد هذا الإعداد النوعي للكفاءات الفردية الصلبة والمتنوعة في مهاراتها لتأتي مرحلة الإقامة بصورتها الكاملة التي تهين الواقع ليكون الالتزام والعمل بأحكام الدين في أفضل صورة وأيسر طريقة، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ [الشورى: ٣٨]، والاستجابة تعني القبول والموافقة على ميثاق الله ودستوره، إنه إقرار وشهادة على أول عقد يصبح الإنسان بموجبه مسلماً لله سبحانه طائعاً له فيما أمر ونهى دون تجزئة هذا العقد لا يلزم الإنسان به إلا نفسه فيبدأ بتربية نفسه ثم تأهيلها ثم ينتقل إلى من له عليهم الولاية والمسؤولية من أسرته ثم الإقامة التي تتوسع دائرتها وتتعدى دائرة الفرد إلى الدائرة الأوسع، ونجد هنا ربطاً بين مفهوم إقامة الدين ووحدة الأمة في سياق السياسة الإسلامية.

إن إقامة الدين لا تعني فقط تنفيذ الشعائر التعبدية، بل تعني إقامة النظام الإسلامي في جميع شؤون الحياة على مستوى الفرد والجماعة في السياسة والاقتصاد والاجتماع وفي كل مجال من المجالات، دو كما أن

الواجبات الفردية محكومة ببذل الجهد حسب الوسع في الإقامة، قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ [الروم: ٣٠] فإن الواجبات الجماعية محكومة بالقدرة والسع الجماعي على إقامتها دون تجاوز يؤدي إلى التهلكة قال تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥]، ونطاق الفهم السياسي لهذا المقصد والعمل عليه يكون بالقيام بما يساعد على زيادة جمع القائمين بهذه الشعائر وتزكية النفوس والحرص على الكيف لا الكم والحفاظ على وحدتهم والتعاون على البر والتقوى والحد من الإثم والعدوان وتوثيق عرى العلاقات والروابط، ومن أجل القيامة الجمعية العالمية لأمة الإسلام التي قال الله عنها سبحانه: ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٩٧]، وقد أكد الله على ضرورة الاستجابة من أجل هذا القيام الجماعي المؤسس للعالمية بالتذكير به في وسط سورة الشورى ونهايتها فقال الله تعالى: ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِّنْ فَضْلِهِ﴾ [الشورى: ٢٦]، ويقول تعالى: ﴿أَسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِّن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٧] ثم يأتي دور الشورى للحفاظ على هذا القيام الجماعي وتنظيم البناء ووضع اللوائح التي تحافظ على وحدته وتماسك حلقاته وتعزيز حضوره وتأثيره ومعالجة المشكلات التي تواجهه وتحد من قدرته على تحقيق غاية العدل والقسط في الأرض.

٤- هداية الاعتصام والوحدة:

بعد تحقيق الاستجابة ثم التكامل بالإقامة الجماعية المتراسة تأتي هداية الحفاظ على تماسك الصف وتكامله والحذر من الفشل والتنازع، يقول الله - سبحانه وتعالى -: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ

مُسَمًّى لَّفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٌ ﴿١٦﴾ [الشورى: ١٦]، واستعراض تجارب الأمم السابقة في القرآن يأتي لاستخلاص الدروس وتجنب الوقوع في الأخطاء والضلالات التي وقعوا فيها، وهكذا ندرك أن هدايات القرآن تحقق مصلحة الفرد والمجتمع بتكامل فالقرآن يوجه إلى بناء الإنسان وإعداده قبل النظام و يركز على تزكية النفس وتربية الأفراد قبل بناء المؤسسات والأنظمة؛ لأن أي نظام سياسي لا يقوم على أفراد صالحين مآله إلى الفساد والانحلال والتناحر والنزاع، يقول الله عز وجل: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

لقد أوجب الله تعالى إقامة الدين كوحدة شاملة تجمع العبادة والأخلاق والاجتماع والسياسة بقوله: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ﴾ وأضاف النهي عن التفرق ليؤكد أن وحدة الأمة أهم عامل لتحقيق هذا الهدف، فالدين لا يُقام في بيئة النزاعات والخلافات، بل يتطلب تحقيق الوحدة: ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ ولزيادة التأكيد على مقصد إقامة الدين بروح واحدة قال: ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾، وعطف ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ﴾ على النهي عن التفرق لإيضاح الجانب السياسي المترتب على الأمر لئلا يظهر الآفة أن هذه الدعوة كانت ثقيلة على المشركين فاجتمعوا بحقدهم لإفشالها فكان الغرض من التحذير الحفاظ على الدين من خلال توحيد الصف وجمع الكلمة وإقامة الدين بالاجتماع دون تفرق وهذا لا يأتي إلا بإقامة الشعائر الجماعية، كالصلوات في المساجد، وإقامة الجمع والأعياد والحج، وكل ما يحقق هدف الاعتصام وعدم التنازع، ففي الصلوات جماعة يكون تحقيق مقصد الوحدة بالحرص

على التعارف والسلام وسؤال المرتادين بعضهم البعض عن الأحوال والشؤون ليكون المسجد نواة الجمع، وهكذا في كل فروع الدين التي شرعت جماعية.

وبهذه الهداية يضع القرآن القواعد الأساسية لحكم المجتمعات، بالحفاظ على سياجها وترابطها ووحدتها ويحدد العلاقة بين الفرد والمجتمع والحاكم والمحكوم، ويُرسّي أسس التشاور والمحاسبة، وفي الوقت ذاته، يجعل من التقوى محورًا أساسيًا للحياة السياسية؛ لأن السياسة بلا قيم روحية تتحول إلى صراع على المصالح والأهواء.

إن التفرق في الدين يؤدي إلى فوضى اجتماعية وتشويش في الحكم، مما يقوض قدرة الأمة على تحقيق سيادتها وعزتها، فالتفرقة ناتجة عن الانحرافات الفكرية التي تؤدي إلى تكوين جماعات متناحرة ومتصارعة، وهو ما يقود إلى تعطيل الدين.

هـ- هداية الشورى كسياج للوحدة:

يقدم القرآن الشورى كركيزة أساسية للحكم الرشيد، حيث يُشرك الجميع في اتخاذ القرارات المصيرية. قال تعالى: ﴿وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨]. وفي هذا درس بليغ على أن الاستبداد السياسي والفكري لا يمكن أن يؤدي إلى مجتمع صالح، مهما بلغت قوة الحاكم أو نفوذه، إن ترسيخ مبدأ التشاور كقيمة أساسية، من هدايات القرآن التي يجب أن تكون في الصدارة فالشورى ليست مجرد مبدأ سياسي يُمارس في نطاق الحكم، بل هي قيمة تنبثق من عمق الإيمان بالله سبحانه، وهو تكليف نزل بصيغة الأمر الذي يجب العمل به قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَنفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ

فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ [آل عمران: ١٥٩]،
هكذا يُربي القرآن الأفراد والمجتمعات على الشورى كأساس للتفاعل
العام، فتُصبح وسيلة لتقريب القلوب وبناء جسور الثقة، والحفاظ
على تماسك المجتمع والدولة فاليبت الذي يتشاور أفرادة، والمؤسسة
التي تُدار بالرأي الجماعي، والمجتمع الذي يُنظم أموره بالتوافق، كلهم
ينعمون بالتماسك والاستقرار، والشورى ضمان لاستقرار المجتمع ومنع
التسلط؛ لأن القرار الجماعي يُعزز المسؤولية المشتركة ويُحجم نزعات
الانفرادية والاستبداد فلا أحد يحتكر الصواب، ولا يُستبد برأي دون
مُراجعة، وهنا تكمن التربية على قبول التنوع، حيث يُدرب الأفراد
منذ الصغر على تقديم الرأي واحترام رأي الآخرين، ما يُثمر مجتمعاً
متماسكاً بعيداً عن الشحناء والخلاف.

والشورى تجمع بين الحكمة الجماعية وسرعة اتخاذ القرار قال الله
تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ تُعلمنا
هذه الهداية فضيلة التوازن بين التأني والسرعة، فالشورى ليست مجالاً
للمماطلة أو استهلاك الوقت بلا طائل، بل وسيلة لتوسيع الأفق دون
إعاقة التقدم.

والتربية على هذا المبدأ تجعل الأفراد قادرين على اتخاذ قرارات مدروسة
ومستنيرة في حياتهم الخاصة والعامة، مع إدراك متى يكون الحسم
مطلوباً ومتى يكون الانتظار ضرورياً.

الشورى لا تعني التباطؤ الذي يُفوت الفرص، كما أنها ليست مجالاً
للاندفاع غير المدروس. إنها الوسيلة التي تجمع بين سعة الأفق
ووضوح الرؤية، وبين التأني المطلوب والسرعة في الحسم.

هدايات العدل

مفهوم العدل وموازينه في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۖ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۝﴾ [الرحمن: ٧-٨]، العدل هو أحد أسماء الله الحسنى، وهو المبدأ الذي أسس الله - سبحانه وتعالى - عليه النظام الكوني، حيث جعل ميزانه الدقيق أساس كل شيء، يتجلى هذا الميزان في كل جانب من جوانب الخلق، من حركة الأفلاك إلى حياة الإنسان.

والعدل في الدنيا هو انعكاس للميزان الأخروي، فيوم القيامة، يُنصب الميزان ليوزن به عدل الإنسان وعمله قال الله تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ [الأنبياء: ٤٧].

من كان عادلاً مع نفسه ومع غيره في الدنيا، فإنه سيجد موازين أعماله ثقيلة في الآخرة، ومن حاد عن العدل ووقع في الظلم، فإنه يُحاسب على ذلك فالله سبحانه كلف الإنسان أن يعكس هذه الموازين في حياته اليومية؛ فالعدل ليس اختياراً بل مسؤولية، وهو الأمانة التي حُمِّلها الإنسان ليقيم القسط في الأرض، ولذا، جاء القرآن ليبيّن هذا المبدأ بتفاصيل دقيقة في كل المجالات، حيث أنزل الله الكتاب على الأنبياء ليكون مرجعاً لتحقيق العدالة بين البشر، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥].

ومن هذه الموازين العدلية التي أرساها القرآن الكريم، ما يلي:

١- ميزان الاستقامة:

العدل ليس مجرد نصوص قانونية أو إجرائية في بطون الكتب

والدساتير، بل هو منهج حياة وروح تسري في المعاملات والعلاقات والأحكام. وهو يقيم الأسرة، ويحكم الدول، وينظم العلاقات بين الأمم، والعدل يبدأ من الإيمان بالله وإقامة الدين لله لا شريك له، والاستقامة على ذلك؛ والعبادة الخالصة لله هي أول وأهم تجليات العدل.

إن الاستقامة في العبادة تعني إعطاء الحق لصاحب الحق الأوحد: الله وحده وكل انحراف في عبادة المخلوق للخالق هو اختلال في ميزان الاستقامة العادل، ويؤدي إلى فوضى روحية واجتماعية. قال تعالى: ﴿فَأَسْتَقِمْ كَمَا أَمَرْتُ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا﴾ [هود: ١١٢]، حيث تشير الآية إلى أن العدل يعني الاستقامة على الصراط المستقيم بلا ميل ولا طغيان وجاء الأمر بالاستقامة والثبات على الدعوة في قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨]، ليربط بين الدعوة والاستقامة ويؤكد على مقصد سياسي قرآني أساسي ومعياري موازين الهداية السياسية هو الاعتدال في السير -دون ميل أو هوى دون غلو أو تساهل، دون بغي أو مدهانة- كمبدأ أساسي لإقامة العبادة في المحاريب بصفوف متساوية أو لإقامتها في محاريب السياسة خلف قيادة لها قرار واحد ومنهج واحد يأخذ كل الأبعاد؛ ومن أهم هذه الأبعاد: أ- الاستقامة في الحكم والقضاء:

يقيم القرآن أساس الحكم الصالح على الأمانة والعدل والحاكم الذي يهمل إقامة العدل يُعرض نظامه للانحيار، قال تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨].

ب- الاستقامة في الاقتصاد:

القرآن يضمن توزيعاً عادلاً للموارد والثروات ويمنع الاحتكار والغش، وكل ما يؤسس للجور والظلم الإقتصادي قال الله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ

إِذَا كُنتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿٣٥﴾ [الإسراء: ٣٥].

ج- الاستقامة

في العلاقات الاجتماعية: يدعو الله لإقامة العدل بين الناس ليشمل كل مكونات المجتمع حتى مسلماً كان أو كافراً طالما استضلوا تحت سقف الحكم الإسلامي، أو الخصوم قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨].

إن الاستقامة على العدل في الإسلام ليست قيمة نسبية أو شعوراً إنسانياً طارئاً، بل أصل كوني واجتماعي وروحي ينبثق من توحيد الله سبحانه والعمل بأوامره، يتساوى فيه الحاكم والمحكوم، الغني والفقير، القريب والبعيد، وهي السبيل لتزكية المجتمعات وصلاحها.

٢- ميزان الأحكام الفردية والجماعية:

هدايات القرآن في العدل وضعت أحكاماً دقيقة تضبط كل أوجه الحياة الإنسانية فهي المعيار التي يُقيم بها الإنسان علاقته مع الله سبحانه، ومع الآخرين، ومع نفسه، ومن هنا، فإن تطبيق العدل في حياة الناس هو اختبار على صدق الإيمان بالله وإثبات لخضوع الإنسان للميزان الكوني الذي وضعه الله سبحانه ومن هذه الأحكام:

أ- ميزان العدل مع النفس والتزام القسط:

١- العدل يبدأ من داخل الإنسان، حيث يجب أن يكون عادلاً مع نفسه في حقوقها وواجباتها، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء: ١٣٥]، وقال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء: ٢٩]، ويشمل ذلك:

٢- العدل في التفكير وعدم إهمال البحث إذ على الإنسان أن يُخضع

عقله للبحث عن الحقائق دون تزييف أو انحياز. قال الله تعالى:
﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦].

٣- العدل في الاعتدال بين الروح والجسد فالإسلام يرفض الغلو والتطرف أو التفریط والتلاعب، في كلا الاتجاهين، يعتبر الميل تجاوزاً للعدل.

ب- ميزان العدل في الأسرة:

الأسرة هي اللبنة الأولى في بناء المجتمع، والعدل فيها شرط لاستقرارها ومن أحكام العدل قول الله تعالى: ﴿وَعَاشِرُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ١٩]، فالعدل بين الزوجين يتحقق بأداء الحقوق والواجبات، سواء في المودة أو النفقة أو اتخاذ القرارات المشتركة.

والعدل بين الأبناء يقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ﴾ [التكوير: ٨]، وهذا السؤال عن جانب مظلّم من جوانب التمييز والطغيان الذي كان سائداً في الجاهلية يكشف عظمة عدالة هذا الدين حتى على مستوى الأبناء، وقد ورد عن النبي ﷺ في صحيح البخاري قوله: «فَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْدِلُوا بَيْنَ أَوْلَادِكُمْ» فالتمييز بين الأبناء يُضعف الترابط الأسري ويؤدي إلى نشوء مشاعر الحقد والغيرة.

ج- ميزان العدل في المعاملات المالية:

الاقتصاد هو ركيزة استقرار المجتمعات، ويقوم في الإسلام على العدل بين الأطراف المتعاملة، قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَيْنَ مَقْبُوضَةً فَإِنْ أَتَى بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمْنَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ رِءُوسٌ لِلظَّالِمِينَ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٣]

والآية شملت أحكاماً عديدة في التعاملات، تنضبط بها حياة المجتمع،

وتحميه من التجاوزات وسلب الحقوق.

د ميزان العدل في بناء الدولة:

قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٤]،
والعهد هو العقد الاجتماعي الذي يلزم الإنسان بها نفسه وأكبر العهود
المتعلقة بالناس هي عقود الدساتير.

والدولة القائمة على العدل هي الدولة التي تلتزم بتطبيق القوانين
بعدل وشفافية، وتحمي الحقوق العامة والخاصة دون تحيز أو محاباة، وقد
ركّز القرآن الكريم على أهمية الوفاء بالعهود والمواثيق فهي الأساس
الدستوري للدولة العادلة يقول الله تعالى في أول آية من سورة المائدة
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١].

لقد بدأت سورة المائدة بتأكيد الوفاء بالعقود كأمر إلهي شامل لكل
الجوانب الفردية، والاجتماعية، والدولية في دلالة بأن العقود هي الأساس
لبناء مجتمع ثم دولة متماسكة قوامها العدل، فهي تمثل الالتزام
القانوني والشرعي الذي يضمن استقرار العلاقات، والعقود في الإسلام،
هي العلاج لانحياز الثقة السياسية والاجتماعية.

٤- ميزان التوزيع العادل للثروة:

يقول الله تعالى: ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةٌ بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾ [الحشر: ٧]،
وهذا التوجيه الإلهي يعكس ضرورة وضع سياسات اقتصادية تضمن
توزيع الثروات بصورة منصفة، بحيث يحصل كل فرد في المجتمع على
نصيبه العادل من موارد الدولة، سواء من خلال العمل أو الدعم
الحكومي، إن العدل في توزيع الثروة سبب رئيسي للاستقرار السياسي
فالله تعالى يقول عن قوم شعيب ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا
فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٩٢]، الذين

يُعرفون أيضًا بأصحاب الأيكة، كانوا يمارسون فسادًا اقتصاديًا بشكل أساسي، كانوا يقللون من الوزن والمكييل عند البيع ويزيدونها عند الشراء، مما يضر بالناس ويخلق عدم ثقة في السوق واختلال في المكييل وكانوا يستغلون ضعف الناس لتحقيق مكاسب شخصية. وهذا النوع من الفساد يؤدي إلى:

انهيار الثقة: يفقد الناس الثقة في بعضهم البعض وفي النظام التجاري بشكل عام.

والظلم الاجتماعي فيه: يستفيد القليل على حساب الكثير، مما يؤدي إلى زيادة الفجوة بين الأغنياء والفقراء وهو ما يضعف الاقتصاد ويزيد الغش والاستغلال ويؤدي إلى تدهور الاقتصاد وزيادة الفقر والبطالة.

قصة قوم شعيب هي تذكير لنا بأهمية العدل والإنصاف في المعاملات التجارية والاجتماعية. كما أنها تحذرننا من عواقب الفساد والظلم فالدول التي تُقيم العدل وتنفذ القوانين بإنصاف تحقق استقرارًا داخليًا كبيرًا وتمنح الأفراد الشعور بالأمان، وتجعلهم أكثر استعدادًا للإسهام في بناء مجتمعهم، أما الدول التي ينتشر فيها الظلم وسوء توزيع الثروات، فإنها تُولد القهر والغضب مما يؤدي إلى الشورات والاضطرابات.

هـ- ميزان الأمة الواحدة والمعايير العالمية:

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢].

التشريع الإلهي ليس نظامًا سياسيًا محصورًا أو اجتماعيًا جامدًا، بل هو علم شامل يتناول المعايير الظاهرة (المادية) والباطنة (الروح والنفس)، مما يجعله أساسًا عالميًا يصلح للبناء عليه في كل عصر، إنه

مرجع دائم لا يتغير بتغير الزمن، بل يتفاعل مع متغيرات الإنسانية
ليمنحها حلولاً تناسب كل مرحلة تاريخية وأي قصور في النظر يغفل هذا
البعد العالمي والزمني، فإنه يبتعد عن فهم جوهر هذا التشريع، فالقرآن
الكريم منهج هداية صالح لكل زمان ومكان و يحتاج إلى تطبيق يراعي
خصوصيات كل مرحلة تاريخية دون المساس بثوابت وأصول الأحكام
ومقاصدها وهو الكتاب السماوي الوحيد الذي سلم من التحريف، ما
يجعله مرجعاً صالحاً لاستشراف المستقبل وبناء الحضارة المتكاملة عالمياً
في ضوء هذه المتغيرات التي جعلت العالم يبدو كمنظومة واحدة ومن
أهم نقاط ضعف الحضارة المادية الحديثة، ما يلي:

أ- التنازع القائم بين القوى العالمية:

إن مفهوم القوة الكونية الوحيدة في التسيير يختلف تماماً عن مفهوم
القوة الأولى التي تتصارع عليها الأمم، فالصراعات العالمية الناتجة
عن فكرة صدارة القوى أدت إلى إنتاج الفساد والتنازع، وهذه سنة لا
يمكن تغييرها إلا بتغيير الأساس النظري والفكري، يقول الله تعالى:

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَٰهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا
يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢]، والعلاج لهذا الفساد هو التشريع الإلهي الذي
يجعل الحاكمية لله رب العالمين. وقد أنزل الله رسالته بهذا الأفق الواسع،
كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ
يَرِثُهَا عِبَادِى ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [١٥] إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عٰبِدِينَ ﴿١٦﴾ وَمَا
أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعٰلَمِينَ ﴿١٧﴾ [الأنبياء: ١٠٥-١٠٧].

ب- الفجوة بين التشريع الإلهي والتشريع الوضعي:

التشريع الإلهي يحفظ حقوق الناس ويحمي مصالحهم على الأرض، ويوفر لهم حقوقاً أساسية، مثل:

- (١) حق المعتقد، (٢) حق المشاركة الشورية، (٣) حق الكرامة والحرية، (٤) حق استغلال الموارد بشكل عادل، (٥) حق الاستكشاف المتساوية.

إنه مشروع ينسجم مع فطرة الإنسان وغاياته العليا، ويقدم حلولاً تتجاوز الإشكالات المادية، ولديه تصور واضح لكيفية إخماد الحروب وتحقيق السلم، ولكن ذلك يتطلب تغييراً يبدأ من العقل المتأمل الذي ينفذ إلى جوهر القضايا بدلاً من الاكتفاء بالسطحيات.

والتأمل الواعي والمتوازن يساعد في بلورة الفكرة النقية التي تتناغم مع الفطرة الإنسانية وتتجاوز الصراعات الثقافية والأيدولوجية، إن الإسلام يقدم منهجاً متوازناً بين الروح والمادة، وبين الظاهر والباطن، ما يجعله مشروعاً عالمياً لحل مشكلات البشرية وهذا ما لا يمكن تحقيقه عن طريق التشريعات الوضعية التي لا تنسجم مع سنن الله سبحانه ومقاصد شريعته.

ج- طغيان الحضارة المادية:

إن الحضارة المادية الحديثة، بما فيها من رأسمالية طاغية وفجوة اجتماعية واغتراب روحي، قد أفرزت العديد من الإشكالات، مثل:

١- الإضرار بالمصالح العامة للشعوب والبيئات.

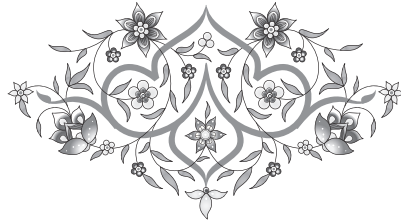
٢- تعميق الفجوة بين الطبقات.

٣- افتقاد العدالة الاجتماعية.

هذه الإشكالات تتطلب مشروعاً إنقاذياً يقدم رؤية متكاملة لتحقيق

المساواة والعدل، والقضاء على الفروقات الجائرة بين الشعوب، وتوزيع الموارد والمعرفة بشكل عادل، وتعزيز التكامل بين الأمم.
رؤية المستقبل في ضوء الهدايات القرآنية:

المستقبل يتطلب نظرة شمولية ترى العالم أمة واحدة بمصالح مشتركة، ومصير مشترك. ليست الأمة الواحدة بالمعنى السياسي فقط، بل بالمعنى الأعمق الذي يرى الشعوب مترابطة بمصير واحد، تتشارك في بناء شبكات مصالح تعزز التضامن العالمي وتحقق التعاون بدلاً من التنافس المدمر، وتعيد الإنسان إلى الاعتناء بروحه واتصاله بالخالق وتوجيه اكتشافاته نحو مزيد من المعرفة بخالقه لإحداث توازن وتكامل بين الإيمان والحياة وبين المادة والروح والإسلام، بمنهجه الرباني، تقدم هذه الرؤية، التي تجمع البشرية تحت مظلة العدل والإنصاف، وتوجهها نحو مستقبل أكثر انسجاماً مع الفطرة الإنسانية.



هدايات الانضباط والتدرج

إن القرآن الكريم يقدم هداياته المتكاملة لتأهيل الإنسان ليكون فردًا صالحًا ومؤثرًا في بناء المجتمع. ومن أبرز هذه الهدايات تلك التي تهتم بالانضباط والتدرج، فهي لا تتعلق بالجانب الفردي فحسب، بل تمتد إلى بناء أمة مستقرة يسودها العدل والنظام، ولذا فإن فهم هذه الهدايات يُعد خطوة أساسية نحو تحقيق الغايات الكبرى التي جاء الإسلام لتحقيقها.

١- هداية الالتزام والانضباط:

يشير القرآن الكريم مرارًا إلى أهمية الانضباط في السلوك كشرط لتحقيق الاستقامة التي تؤهل الإنسان؛ لأن يكون فردًا صالحًا ومنظمًا في المجتمع، أو ما يُعرف بالمصطلح الحديث بـ (المواطن الصالح). هذه الهداية هي الأساس في بناء المجتمع، ومن ثم الدولة التي يسودها العدل والأمان، حيث إن غياب الانضباط يؤدي إلى الفوضى والخراب.

والانضباط في المفهوم القرآني هو الالتزام بـ (الصراط المستقيم)، وهو الخط الثابت الذي يربط العبد بربه، ويضمن قيامه بالواجبات كما أرادها الله سبحانه، يقول الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ٥٢﴾ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ٥٣ إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ٥٤﴾ [الشورى: ٥٢-٥٣]، ودعاء المسلم بـ ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ٦﴾ [الفاتحة: ٦] هو التزام عملي باتباع هذا النهج الرباني في جميع شؤون الحياة، ومن هنا جاءت التربية القرآنية لتعزيز الجدية وعدم التساهل في فروض الدين، باعتبارها تأهيلًا للفرد في الجانب السياسي والاجتماعي، يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ

اتَّخِذُوا دِينَكُمْ هُزُؤًا وَلَعِبًا ﴿٥٧﴾ [المائدة: ٥٧]، ويقول تعالى: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُؤًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ ﴿٥٨﴾ [المائدة: ٥٨]، وفي خطاب للرسول ﷺ، يقول الله عز وجل: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٤٩] هذه الآيات تشير إلى أهمية الحفاظ على القيمة السياسية للدين كمنهج مهيمن ومصدر توجيه للحياة، وليس مجرد أداة نفعية مصلحة يمكن العبث بها وتغيرها، أو التفاوض عليها والمداينة فيها، كما يوضح القرآن أهمية الجمع بين الحزم والرحمة في السياسة والحكم، حيث يقول الله: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿١٨﴾ [المائدة: ٩٨]. هذا التوازن يحقق العدل في المجتمع من خلال قوانين رادعة وممارسات رحيمة تعزز الثقة بين الحاكم والمحكوم. وفي سياق مكمل، قال الله: ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَلُغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ ﴿١١﴾ [المائدة: ٩٩] ليظهر أن الرقابة على هذا الانضباط لا تعتمد على الوسائل البشرية فقط، بل تتجاوز ذلك إلى رقابة إلهية شاملة، يعلم الله سبحانه فيها ظاهر الإنسان وباطنه فالرسول ﷺ كقائد هو مكلف بالتبليغ، بينما تقع على المجتمع مسؤولية الالتزام العملي، تحت رقابة الله العليم الذي لا تخفى عليه خفايا الأنفس.

٢- هداية التأهيل والتدريب على الانضباط:

أ- أهمية الاختبارات العملية في التربية القرآنية:

يركز القرآن على اختبارات عملية تهدف إلى تعزيز الانضباط، كما في قصة طالوت حين قال الله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ﴾ [البقرة: ٢٤٩]. هذا الاختبار كان معياراً للطاعة والانضباط، حيث أثبتت النتائج أن الالتزام يُعد شرطاً أساسياً لتحقيق وحدة الصف ونجاح الجماعة

في تحقيق النصر، فمن امتثل للأمر أثبت قوته النفسية واستعداده لمواجهة التحديات الكبرى، ومن خالف كشف عن ضعف إرادته، فغياب الانضباط يؤدي إلى الفشل، كما يشير القرآن: ﴿وَلَا تَنْزِعُوا فَتَفْشَلُوا﴾ [الأنفال: ٤٦]. وعلى النقيض، فإن الالتزام والطاعة يؤديان إلى النجاح، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١].

ومن أجل تعزيز هذا الانضباط، نهى الله سبحانه عن الأسئلة الجدلية والخيالية التي تعيق التنفيذ وتثير الفوضى، فقال الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبَدَ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ﴾ [المائدة: ١٠١]. وقد أظهرت قصة بقرة بني إسرائيل كيف أن كثرة التساؤلات وافتعال الشكوك يمكن أن تعيق الانقياد وتؤدي إلى مشقة لا مبرر لها.

ب- أهمية العقود كرمز للانضباط:

تُعد سورة المائدة نموذجاً قرآنياً لبناء أمة قائمة على الوفاء بالعقود والانضباط في السلوك فقد افتتحت بقول الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١]. ثم تدرجت السورة في إيضاح الكثير من الأحكام التي تبنى بها الدولة الإسلامية قوانينها وعلاقاتها، والوفاء بالعقود لا يقتصر على الاتفاقيات بين البشر، بل يمتد ليشمل العهود مع الله ومع المجتمع. هذا المبدأ هو الأساس الذي يحفظ استقرار الأمة ويعزز وحدتها.

ومن الأمثلة العملية التي تدرب المسلم على الانضباط أحكام الحج، التي تعلّم الالتزام الجماعي وتُظهر أهمية ضبط النفس. يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ﴾ [المائدة: ٩٥]،

وتشريعات الحج، مثل تحريم الصيد أثناء الإحرام، ليست مجرد أوامر عابرة، بل تدريب عملي يعزز الانضباط الجماعي.

ج- أهمية إقامة الحدود كوسيلة للانضباط:

الحدود الشرعية، كقطع يد السارق، وحد الحرابة هي قوانين تهدف إلى تحقيق العدل ومنع الفوضى، فهي ليست عقوبات جائرة، بل أدوات تضمن أمن المجتمع واستقراره. يقول الله تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَٰكِنْ يُرِيدُ لِيُظَهِّرَكُمْ﴾ [المائدة: ٦].

إن تحقيق الانضباط في حياة الإنسان وفق هداية القرآن ركن أساسي لبناء أمة قوية تسودها العدالة والأمن، ومن خلال التزام الفرد بالعقود وضبط النفس والالتزام بالقوانين، تتحقق أسس النهضة والاستقرار التي أرادها الله للبشرية.

٣- هداية التدرج في الإصلاح والتغيير:

التدرج في المنهج الإلهي لا يظهر فقط كوسيلة للتربية والتعليم، بل يتجلى كحكمة شاملة تشمل جميع جوانب الحياة، من التشريع إلى البناء السياسي والاجتماعي، والزمن في القرآن الكريم ليس مجرد إطار للأحداث، بل عامل استراتيجي لتحقيق الغايات بتخطيط متأن وتطور حكيم، قال الله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ﴾ [المائدة: ١٩] والإشارة إلى «فترة من الرسل» تكشف عن البعد الزمني في التشريع الإلهي، الذي يُراعى فيه حال الأمم وظروفها، وتخصيص مساحة زمنية بين الرسائل ليس مجرد فراغ، بل هو فترة تقييم وتهيئة للمتغيرات الزمنية، وإعادة البشرية للمسار الصحيح، وكما أنزلت الأحكام الشرعية تدريجياً في الإسلام، مثل التدرج في تحريم الخمر وتفصيل الحدود، فإن المنهج الإلهي

يوجه البشر إلى التآني في الإصلاح، لتجنب الفوضى التي قد تنشأ عن الاستعجال.

إن التدرج في البناء الكوني أيضًا يُبرز درسًا عظيمًا في الإعداد المتقن فقد خلق الله سبحانه السماوات والأرض في ستة أيام، ولم يكن بحاجة لذكر الزمن، ولكن أراد أن يلفت نظر الذاكرين لحكمة التدرج، وهذا التدرج يبرز أهمية التخطيط المحكم. قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ [فصلت: ١١]، وهذه إشارة إلى مراحل التحول التدريجي من الحالة الأولية إلى نظام متكامل، وهذا البناء الكوني المدهش يعكس رسالة تربية للبشر، بأن الخطوات المنظمة والمتدرجة هي السبيل للوصول إلى النجاح، وفي مجال الإصلاح السياسي والاجتماعي، لا يمكن تحقيق التغيير بالسرعة أو الاندفاع، فحين هاجر النبي ﷺ إلى المدينة، أسس لبناء الدولة تدريجيًا، أولاً: بتحقيق الأمن عبر ميثاق المدينة، وثانيًا: بتنظيم العلاقات بين المسلمين والمجتمعات الأخرى، وثالثًا: بإرساء أسس العدل من خلال تشريعات متكاملة.

هذا التدرج يُبرز حكمة النبي ﷺ في معالجة الأمور ضمن سياق زمني متوازن، ما أدى إلى بناء مجتمع مستقر ومتماسك والهداية القرآنية تعلمنا أن التدرج جزء من السنن الإلهية، سواء في التشريع أو الدعوة أو بناء الأمم، والزمن عنصر حيوي لتحقيق الأهداف الكبرى، كما أن الإنجازات العظيمة تحتاج إلى تخطيط محكم، وتنفيذ على مراحل، وصبر على النتائج.

إن هذا الفهم يجعل التدرج أداة لتحقيق التوازن بين القيم المثالية والواقع العملي، وهو ما يُمكن الأمة من النهوض ضمن إطار سنن الله الواقعية.

٤- هدايات استغلال الوقت في القرآن:

الزمن في القرآن الكريم يُعد عنصراً محورياً في إدارة الحياة وتنظيم الأولويات، وهو أداة لتحقيق التوازن بين التريث والاستعجال، وبين الخطط قصيرة وطويلة المدى، ومن أبرز أبعاده في القرآن الكريم الربط بين استثمار الزمن وبناء النظام السياسي والاجتماعي عبر المواعيد المحددة والمواسم الدينية، التي تنظم حياة الأفراد والمجتمعات ومن الهدايات الزمنية في القرآن الكريم، ما يلي:

أ- التوازن بين التريث والاستعجال:

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۚ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الكهف: ٢٣-٢٤].

هذه الآية فيها توجيهٌ للتوازن في التخطيط، فهي تحذر من الاستعجال غير المدروس الذي قد يؤدي إلى أخطاء كبيرة، وفي الوقت نفسه، تحث على تجنب الغفلة التي تضيع فرص الإصلاح والبناء، مما يعزز مفهوم التوكل مع اتخاذ الأسباب.

ب- الزمن كوسيلة للوحدة الاجتماعية والسياسية:

الاجتماعات الدورية، سواء الأسبوعية كصلاة الجمعة أو السنوية كالحج، تُرسخ أهمية التذكير المستمر بمبادئ الدين والحفاظ على وحدته وهذه المناسبات تُمثل وسائل لتعزيز الوحدة والتماسك الاجتماعي والسياسي، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ﴾ [الجمعة: ٩].

وقال تعالى عن مؤتمر الحج السنوي ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَفَعَهُمْ﴾ [الحج: ٢٨]. هذه المواعيد الزمنية تربي على الانضباط والتخطيط، وتُعد فرصة للتواصل وإعادة تقييم الأولويات.

ج- الزمن في التخطيط والإدارة:

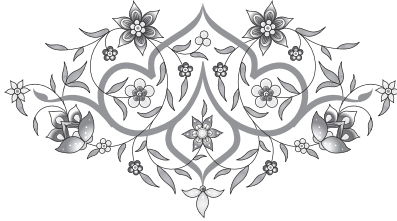
قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣].

الالتزام بمواقيت الصلاة نموذج عملي للانضباط الزمني، وهو درس يتسع ليشمل إدارة شؤون الحياة كلها، حتى قصة أهل الكهف تقدم منظوراً للزمن كعامل في إدارة التحولات الكبرى، قال الله تعالى: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ [الكهف: ٢٥]، تشير هذه الآية إلى أهمية الفترات الزمنية الطويلة في تحقيق التغير الجوهري على مستوى المجتمعات.

د- البعد العملي للزمن:

الزمن في القرآن لا يُنظر إليه فقط كأداة تنظيمية، بل كعامل أساسي في تحقيق الأهداف والتقدم نحو الإصلاح، قال الله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

إن الهدايات القرآنية تُظهر أن الزمن أداة محورية في بناء المجتمعات وإصلاحها، فمن خلال التوازن بين الأهداف والوسائل، يُصبح الوقت إطاراً لتحقيق التغير المتدرج الذي ينسجم مع سنن الله سبحانه في الكون والحياة.



مَرْحُومٌ

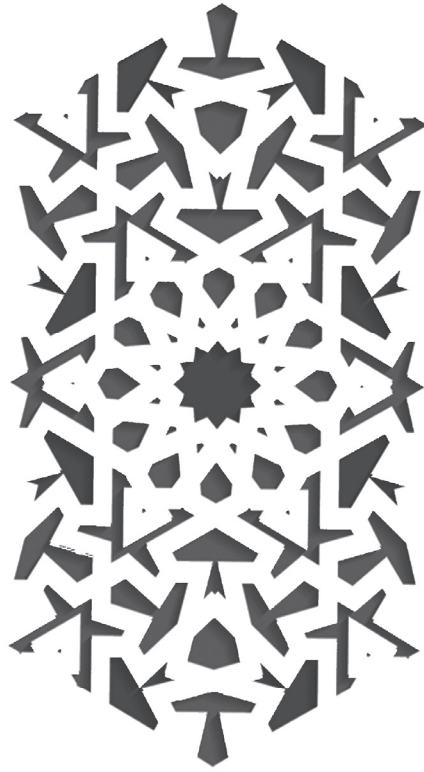


مَعَالِي

أصالة النشأة
وسمو الهدف



مَعَالِي مَعَالِي مَعَالِي
مَعَالِي مَعَالِي مَعَالِي



محفوظ
جميع الحقوق

حصاد غرسكم

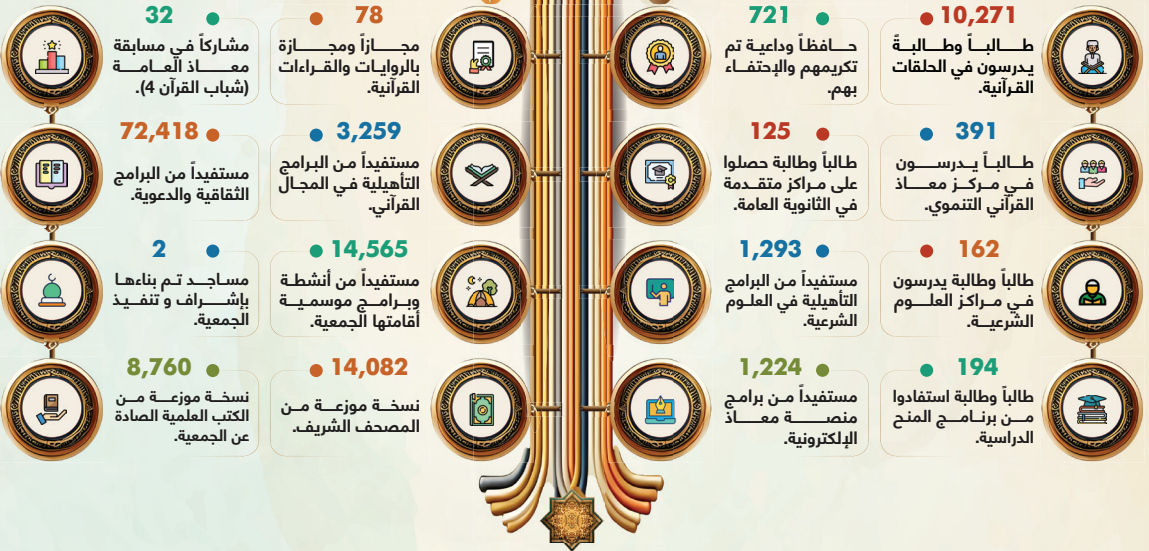
20
24

أمانة الشاة
وسمو الهدف

f @ v x
Muath.t.y



جامعة جازان العلمية
البحرية الإسلامية



الحصاد التراكمي..

نسخة من المصحف الشريف تم توزيعها.	97,947	عالمياً وداعية تخرجوا من مراكز العلوم الشرعية.	240	طالباً وطالبة يدرسون في 557 حلقة قرآنية.	10,271
نسخة تم توزيعها من الكتب العلمية الصادرة عن الجمعية.	86,336	طالباً تخرج من مركز معاذ القرآني التنموي.	671	حافظاً وحافضة تخرجوا من الحلقات القرآنية.	4,735
مستفيداً من أنشطة الجمعية المتنوعة والمتعددة خلال الأربعة الأعوام السابقة.	201,372	مسجداً تم بناؤها باشراف وتنفيذ الجمعية.	91	مجازاً ومجازة بالروايات والقراءات القرآنية.	520

المركز الرئيسي : 04259087/64
شارع جمال - تعز - اليمن 04250845

www.muath.org



جَمْعِيَّةُ مُعَانِي الْعِلْمِيَّةِ

لِلْخِدْمَةِ الْقُرْآنِيَّةِ وَالسُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ

أصالة النشأة
وسمو الهدف

